جين إير

تأليف : شارلوت برونتي

تبسيط : إفلين أتوود

ترجمة : صبري الفضل

مراجعة : مختار السويفي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

روائع الأدب العالمي للناشئين

جين إير

المشرف على التحرير : مختار السويفى

الاخراج الفنى : انعام صالح

المؤلفة

ان قصــة الأخوات برونتى فى الأدب الانجليزى قصة عجيبة تبدأ بالأب (١٧٧٧ ـ ١٨٦١) الذى جاء من أيرلندا ليصبح راعيــا بالكنيسة الانجليزية فى هيوارث ٠ وهى جزء موحش من يوركشير ، ويتزوج من امرأة من كورنوال (*) ٠ تموت بعد عشر سنوات من زواجهما ، تاركة له أطفالهما الســتة : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت ، باتريك ، اميلى ، آن ٠

ويبـــدأ فى تربيتهم وتعليمهم بنفسه ، الى أن

(*) مقاطعة فى أقصى الطرف الجنوبى الغربى من انجلترا ٠

يلحق بناته بمدرسة داخلية رخيصة فى كوان بريدج ، خاصة لتعليم بنـــات رجـــال الدين • ولقد وصفت شـــارلوت هذه المدرسة فى الفصول (٦ – ١١) من « جين اير » •• وهلين برنز فى القصـــة هى صورة مطابقة لأخت شارلوت الكبيرة ماريا ، وما قابلته من معاملة قاسية بالمدرسة •

ذهبت شارلوت بعد ذلك الى مدرسة أخـرى فى روهيد وهى المدرسة التى أصبحت مدرسة بها فيهـــا بعد • ثم سيطرت عليها فكرة ادارة مدرسة خاصة • فذهبت الى بروكسل لتدرس اللغة الفرنســـية ، وهى ترسم صورة لهذه الفترة من حياتهـــا فى روايتهـــا « فيليت » • وفشلت مدرستها ، وبدأ والدها يصاب بالعمى ، وأصبح أخوها سكيرا مدمنا • وأصيبت أختها اميلى بمرض الرئة •

وكتبت شارلوت فى هذه الاثناء « جين اير » ، كذلك رواياتهـــا الأخـــرى ، وهى « البروفيسور » و «شيرلى» و « فيليت » •• وتزوجت من آرثر نيكولز وهو قسيس بالكنيسة الانجليزية ثم ماتت بعدهـــا

بعام واحد فى ١٨٥٥ ، عندما بدت السعادة تظهــــر أخيرا فى الأفق ، تاركة أبيها العجوز من ورائهـــا فى هيوارث فى عزلة لا فرار منها ·

ولدت شارلوت برونتى فى ٢١ ابريل ١٨١٦ ، كاتبة بالمولد · ولكن كان عليها أن تتعلم أسلوبهـــا · اسلوب الواقع وراء نطاق الخبرة ، لا وراء نطاق المعرفة الانسانية ·

كانت جين اير تبدو فى وقتها المــرأة العصريــة الحديثة جدا لدرجة جعلت مسز جاسكيل ، التى تعتبر من الرائدات فى تحرر المرأة ، مندهشة بما قد يسمى **بايجابية الحب** · فجين اير تعتبر **رواية فريدة للعصر الفيكتورى** ، فالنقاوة فيها أصبحت مشبوبة بعاطفـــة صريحة ·

لقد ذهبت « امرأة الرجل » وجاءت هنا « امرأة نفسها » تجابه الرجل على أرضية متساوية ، بمعنى أن جين اير هى الرواية المعاصرة الأولى التى تطوق حيـــاة امرأة عادية بسيطة بقصة رومانسية ، وضعتها المــرأة

المتمردة المتحررة فى شعورها وفى التحدث بما تشعر به . وجاءت بكل وضوح الى الأدب الانجليزى المعاصر من بيت القس المنعزل فى هيوارث .

المترجم

الفصـــل الأول

جيتسهيد

لم يكن بالامكان التريض فى ذلك اليوم · فى الحقيقة لقد قمنا بالسير صباحا لمدة ساعة فى الحديقة فوق أوراق أشجارها المتساقطة · ولكن منذ الغـــداء جلبت ريح الشتاء الباردة معها سحبا قاتمة وأمطـــارا غزيرة ، فكان من المستحيل الخروج من البيت ·

كنت مسرورة بذلك · اذ لم أكن أحب السير طويلا خصـــوصا فى الأمسيات الباردة · وكان من المزعج لدى أن أعود للبيت عند شفق الغروب بأطراف متجمدة وقلب مثقل بتوبيخ المربية بيسى ، وشعـــور

بضعف جسمي الصغير بالمقارنة مع اليزا وجـون وجورجيانا ريد ٠

ان اليزا وجون وجورجيانا يتجمعون حول أمهم فى حجرة الاستقبال بمنزلهم بجيتسهيد الآن ٠ وهى تجلس فى راحة بجانب المدفأة مع من تحبهم من حولها ٠ وتبدو عليهـا السعادة التـامة ، وهم لا يتشاجرون ولا يتناحرون أثناء ذلك ٠ ولقد طردتنى من صحبتهم ، قائلة انها تأسف لاضطرارها لابعادى ، الى أن أحاول بشكل جدى فى تحسين طباعي لاكون صدوقة جذابة ٠ كما أنها لا يمكنها أن تسـمح لى بالمباهج الخاصـة بالاطفال الصغار السعداء القنوعين ٠

فاستفسرت منها :

ـ ولكن ، ماذا فعلت ؟

ـ جين ، انا لا أحب الاسئلة أو الاعتراضات ٠ ولا يجب على الاطفال أن يتكلموا مع الكبار بمثل هـذه الطريقة ٠٠ اجلسى عندك واسكتى الى أن يمكنك التحدث بشكل مقبول ٠

كانت غرفة تناول الافطار تلى غرفة الاستقبال ، فزحفت اليها • وكانت تضم أرففا للكتب ، فاستحوذت على كتاب فى الحال بعد أن تأكدت أنه ملىء بالصور • وتسلقت على حافة النافذة ورفعت قدمى وجلست عاقدة ساقى وسحبت الستائر الحمراء ، فشعرت بحماية مزدوجة •

كانت كل صورة تحكى قصة ، غالبا غامضة على ادراكى الصغير ، ومع ذلك كانت دائما مسلية بشكل كبير تماما كقصص بيسى التى تبدأ فى روايتها أحيانا فى أمسيات الشتاء عندما تكون معتدلة المزاج ، فيتعلق انتباهنا الشغوف بذكريات الحب والمغامرات المأخوذة من الاغنيات والقصص القديمة

كنت سعيدة والكتاب على ركبتى • لا أخشى شيئا سوى المقاطعة والتى جاءت سريعا جدا ، اذ نادانى جون ريد ، ثم توقف ، اذ وجد الغرفة خالية ، وصاح :

– اين هى ؟ لقد اختفت ؟

ثم اخذ ينادى على اختيه :

— ليزى ! جورجى ! جين ليست هنا · اخبـرا ماما بأنهـا خرجت فى المطر ! ·· هذه الحيوانة السيئة !

فقلت فى نفسى :

— من حسن الحظ اننى سحبت الستارة ·

وتمنيت من كل قلبى ألا يكتشف مخبأى · ومـا كان له أن يكتشفه بنفسه ، حيث انه ليس حاد البصر ولا الذكاء ، ولكن اليزا اطلت براسها من الباب وقالت على الفور :

— انها فوق حافة النافذة ، بالتأكيد ، ياجون !

فخرجت فى الحال لأننى ارتعدت من فكرة أن يجرنى جون من وراء الستارة ، وقلت مستفسرة :

— ماذا تريد ؟

فأجاب :

ـ قولى ، « ماذا تريد يا سيد ريد ؟ » أريدك أن تأتى الى هنا ٠

وأجلس نفسه على كرسى ذى مساند ، وأشــــار الى أن أقترب وأقف أمامه ٠

كان جون ريد تلميذا فى الرابعة عشرة من عمره ، لديه مرض جلدى ، وملامح خشـــنة وذراعان وساقان غلاظ ٠ كان المفروض أن يكون فى المدرسة حاليا ، لكن والدته قد أخذته البيت لشـــهر أو اثنين بسبب صحته الرقيقة ٠ لقد قال أستاذ المدرسة ان حالتـه كانت نتيجة شراهته ، ولكن قلب أمه رفض هـــذا الرأى القاسى ، وفضلت أن تعتقد أنه أجهد نفســه أكثر من اللازم وأصابه الحنين للبيت ٠

لم يكن جون مغرما بامه واختيه ، أما انا فكان يكرهنى ٠ وكان يعاملنى معاملة ســـيئة ويعاقبنى لا مرتين او ثلاثة فى الاسبوع ولا مرة أو مرتين فى اليوم ولكن باستمرار ٠ ولم أجد من يحمينى منـــه ٠

فالخدم لا يحبون الاساءة لسيدهم الصغير ، أما مسز ريد فلا يبدو عليها مطلقا أنها رأته يضربني أو سمعته يهينني ، رغم أنه فعل ذلك مرارا في حضورها .

وكوني بالتعود أصبحت مطيعة لجون ، وقفت أمام كرسيه حيث أشار لي . وقضى حوالي ثلاث دقائق، يخرج لي لسانه . وكنت أعلم أنه سيضربني في الحال ، وأثناء انتظاري في فزع لضربته ، أخذت أتأمل في مظهره المقزز القبيح . وتعجبت ان كان قد قرأ افكاري على وجهي ، لأنه فجأة وبدون كلام ضرب ضربته بحدة وخشونة ، وكـــدت أقـــع الا أنني تمـالكت توازني وتراجعت خطوة الى الخلف من كرسيه . وقال :

– هذه الضربة لمساءلتك ماما ، ولتسللك مثـل اللص خلف الستائر ، وللنظرة التي كانت في عينيك منذ دقيقتين ، أيتها الفأرة !

كنت قد تعودت على اهانات جون ريد لدرجة أني لم تكن لدى فكرة الرد عليها على الاطلاق . وكان همي هو كيف استقبل الضربة التي ستتبع ذلك بالتأكيد . وسأل :

ـ ماذا كنت تفعلين خلف الستارة ؟

ـ كنت أقرأ ٠

ـ اريني الكتاب !

عدت الى النافذة وأحضرت الكتاب فى صمت ٠

ـ ليس من حقك أن تاخذى كتبنا ! ماما تقول انك قريبة فقيرة ٠ ليس لديك مال ٠ لم يترك والدك شيئا ٠ يجب أن تتسولى ولا تعيشين هنا مع أطفال أناس محترمين مثلنا ، وتأكلين نفس الطعام الذى نأكله وترتدين ملابس على نفقة أمنا ٠٠ والآن سأعلمك لاستعمالك لكتبى لانها ملكى ٠ كل المنزل ملكى أو سيكون فى سنوات قليلة ملكى ٠ اذهبى وقفى بجانب الباب ، بعيدا عن المرايا والنوافذ ٠

وفعلت ذلك ، غير موقنة لنيته فى البداية ، ولكن عندما رأيته يرفع الكتاب بهدف تصويبه على ، قفزت جانبا صارخة بانزعاج ، مع ذلك ليس بالسرعة الكافية ٠ طار الكتاب الثقيل ولطمنى وسقطت ضاربة رأسى فى الباب ٠ وأخذ الدم ينزف من رأسى مع ألم

حاد . لقد زاد خوفي الشديد عن حده وتحول الى شعور آخر ، **فقلت :**

ـ ولد شرير قاس ! انك مثل القاتل .. انك مثل سائق العبيد .. انك مثل حكام روما القديمة الأشرار !

فصرخ قائلا :

ـ ماذا ! ماذا ! هل هي تقول ذلك لي ؟ هل سمعتيها يا اليزا ، وانت يا جيورجيانا ؟ سأخبر ماما ! لكن أولا ...

وركض نحوى مباشرة . وشعرت به يمسك بشعرى وبكتفي . لقد انقض علي بشكل خطير ، فاعتقدت بانه قاتل حقا . واحسست بنقط من الدم تسيل من رأسى على رقبتي . وقهر احساسى بالمعاناة للحظة احساسى بالخوف ، فقاومته بجنون .. لا أعرف ماذا فعلت بيدى بالضبط ، لكنه دعاني قائلا : « فارة ! فارة ! » وبكى بصوت مرتفع . كانت النجدة قريبة

منه · فلقد ركضت أختاه بحثا عن مسز ريد التي كانت بالطابق العلوى · فحضرت فى الحال تتبعها بيسى ، ووصيفتها أبوت ، وأبعدانا عن بعضنا ثم سمعت هذه الكلمات :

ـ أوه ! يا للشريرة الصغيرة التى تهجم على السيد جون هكذا !

ـ هل رأى أحد مثل هذه الأخلاق الشريرة !

ثم ألقت مسز ريد أمرها :

ـ خذوها الى الغرفة الحمراء واقفلوا عليهـــا الباب ·

الفصـــل الثـــاني

الغرفة الحمراء

فاومت طوال الطريق . كان هــذا شيئا جديدا بالنسبة لى ، وحدثا أثار الرأى السىء وقواه بشكـــل كبير حتى أن بيسى وأبوت امتنعتا عن مناصرتى .

– امسكا ذراعيها . انها مثل القطة المجنونة .

وصرخت الوصيفة :

– ياللعار ! ياللعار ! ما هذا التصرف الفظيـــع يا آنسة جين ، تضربين سيدا صغيرا ، ابن ولية أمرك ... سيدك الصغير !

ـ سيدى ! كيف يكون سـيدى ؟ هـل أنا خادمة ؟

ـ كلا ، انك أقل من خادمـة ، لانك لا تفعلين شيئا لتتعيشين منـه ٠٠ اجلسى عندك وفكرى فيما اقترفتيه من شر ٠

عندئذ اوصلانى الى الغرفة التى ذكرتهـا مسز ريد ودفعانى فوق كرسى فيها ، تقفزت عنـه واقفـة كالزمبرك ، فمنعتنى سواعدهما فى الحال ، وقـالت بيسى :

ـ اذا لم تجلسى ساكنة فسنربطك فى الكرسى ٠ مس ابوت ، أعيرينى حزامك !

فصرخت :

ـ لا ، لا تفعلى ذلك ٠ اننى لن أتحرك !

فقالت بيسى :

ـ اذن ، لا تتحركى على الاطلاق ٠

وعندما تأكدت من أننى أصبحت بالفعل أهـدأ رفعت يديها من على . ووقفت مع أبوت عاقدة الأذرع ، وأخذتا تنظران الى وجهى بجهامة وريبة . وقالت بيسى أخيرا وهى تلتفت للوصيفة :

– انها لم تفعل ذلك مطلقا من قبل !

فكانت الاجابة :

– لكن ذلك كان يكمن فى داخلها دائما . لقـد اخبرت الآنستين برأيى عن البنت ، والآنستين وافقتا معى . انها كائن مخادع .

لم تجب بيسى ، ولكنهـا بعـد فترة خاطبتنى قائلة :

– يجب أن تعلمى يا آنسة بانك لابد ان تكونى ممتنة لمسز ريد . فهى تعولك ، واذا طردتك ، فمن سيرعاك ويهتم بأمرك ؟

لم يكن عندى ما اقوله ردا على ذلك . فهـذه الكلمات ليست جديدة على . فلقد سمعت من قبـل اقتراحات عديدة من نفس النوع ، جارحة ومؤلمة جدا

لكبريائى ، ولكنى لم أكن أعيها تمـــاما • ثم قـالت ابوت :

ـ ولا يجب عليك أن تضعى نفسك على قـــدم المساواة مع الآنستين والسيد ريد لأنهم سمحوا لـك بكل عطف أن تعيشى معهم • فهم سيكون لديهم مـال وفير ، وانت لن يكون لديك شيء •• فمن واجبك اذن أن تخضعى لهم وتحاولى أن ترضيهم !

واضافت بيسى بنبرة أكثر اعتدالا :

ـ ان ما تقـــوله لك هـو من أجل صالحك •• اجتهدى أن تكونى مفيدة لهم • وعندئذ ربما يكون لك نصيب فى المعيشة هنا • لكن اذا أصبحت ثائرة العاطفة ووقحة فسوف يطردونك ، أنا متأكدة من ذلك •

وقالت ابوت :

ـ بالاضـــافة الى أن الله ســـوف يعاقبك • فربما ينزل عليك غضبه فتموتين أثناء غضبك •• تعالى يا بيسى ، اننا سنتركها • وادعى ربك يا آنسة جين ،

لانك اذا لم تكونى آسفة بسبب آثامك ، فسوف ينزل عليك شيئا سيئا من المدخنة ليأخذك ٠

وذهبتا وأغلقتا الباب بالمفتاح ٠ كانت الغرفـــة الحمراء عبارة عن غرفة مربعة الشكل ، مؤثثة بأثاث من الخشب الغامق ، مع سجادة حمراء ثقيلة وسرير ضخم وستائر حمراء دائما مسدلة على النوافذ ٠٠ كانت هذه الغرفة باردة لانها من النادر ما يشعلون فيها المدفـــأة وكانت ساكنة لانها كانت بعيدة عن غرفة الاطفـــال والمطبخ ٠ وكانت وقورة لأنها من النادر أن يدخلهـــا أحد ٠٠ وهنا مات مستر ريد من قبل تسع سنين ٠

لم أكن متأكدة من أنهما قد اغلقا الباب بالمفتاح ، فعندما جاءتنى الجرأة على الحركة ، قمت وذهبت لأرى٠ آه ، أجل ! فلا يوجد سجن أكثر احكاما ٠٠ !

كان رأسى لا يزال يؤلمنى ولا يـــزال يدمى من اللطمة والسقوط على الباب ٠ ولم يعاقب أحد جون لضربه لى بدون سبب ٠ وقلت فى نفسى « ظلم ! ظلم ! » وبدأت أخطط للهروب ، أى نوع من الهروب : مثـــل

الانفلات من البيت ، أو عدم الأكل والشرب بعد ذلك ، وأترك نفسى لكى أموت ٠

وبدأ ضوء النهار يغادر الغرفة الحمراء ٠ كانت الساعة بعد الرابعـــة والسماء ملبدة بالغيـــوم التى يفرقها برق كئيب ٠ وسمعت المطـــر لا يزال ينقـــر باستمرار على نافذة الدرج ، والريح تعوى فى الشجر تحت البيت ٠ وبعد فترة أصبحت باردة كالثلج وغاضت شجاعتى ٠ لقد قال الجميع بأننى شريرة ، وربما أكون كذلك ٠

عادت افكارى الى خالى ٠ اننى لا أستطيـــع أن أتذكره ، لكنى أعرف انه كان أخـا لأمى ، وأنه قد أخذنى الى منزله كطفلة بلا أب ولا أم وأنه قبل أن يموت حصل على وعد من زوجته مسز ريد بأنها ستعتنى بى كأحد أبنائها ٠

وجالت برأسى فكرة غريبة ٠ لم أشـــك مطلقا أن مستر ريد كان سيحسن معاملتى اذا كان مازال على قيد الحياة ٠ والآن ، مع حلول الظلام ، بدأت أتذكر

قصص الأموات الذين هم قلقون في قبورهم بسبب عدم الاهتمام بوصاياهم الأخيرة ، فيقومون بزيارة الأحياء ·· وربما يتمثل شبح مستر ريد امامى · وهذه الفكرة ، بدلا من أن تريحنى ، ملأتنى بالرعب · وانعكس ، في هذه اللحظة ، شعاع من الضوء على الحائط ، ربما من مصباح محمول عبر الحديقة في الخارج، لكن بالنسبة لاعصابى المهزوزة المستعدة للرعب بدا كاشارة لشخص ما قدم من العالم الآخر · فدق قلبى بسرعة وأصبح راسى ساخنا · وملأ أذنى صوت يبدو مثل رفرفة الأجنحة ، فركضت صارخة في ياس الى الباب ، وأخذت أحرك مقبضه ·· فجاءت خطوات مسرعة على طول الممر الخارجى ، وانفتح الباب بالمفتاح ودخلت بيسى ثم أبوت ، وقالت بيسى :

– آنسه جين ، هل أنت مريضة ؟

واردفت أبوت قائلة :

– يا لها من ضوضاء مزعجة ! لقد شلت حركتى !

فكانت صرختي :

ـ أخرجوني ! دعوني أخرج من هنا !

فسألت بيسي ثانية :

ـ لماذا ؟ هل تضايقت ؟ هل رأيت شيئا ؟

ـ أوه ، رأيت نورا ، وظننت شبحا قد أتى ·

وامسكت بيد بيسي التي لم تسحبهـــا مني ،

وقالت ابوت بامتعاض :

ـ لقد صرخت عن عمد · ويالها من صرخة ! اذا كانت أصيبت بألم فظيع لكان لها عذر ، لكنها أرادت ان تاتي بنا جميعا الى هنا · أنا أعرف حيلها الماكرة ·

وجاء صوت آخر مستفسرا بحدة :

ـ ما كل هذا الضجيج ؟

انها مسز ريد التي استمرت قائلة :

ـ أنت يا أبوت وأنت يا بيسي ، أعتقد أنني أمرت بأن تترك جين اير في الغرفة الحمراء حتى آت اليها بنفسي !

فاجابت بيسى :

ـ لقد صرخت الآنسة جين بصوت عال يا سيدتى ·

فكانت اجابتها :

ـ أدخلوها · أتركى يد بيسى يا بنت ، انك لن تنجحى فى الخروج بهذه الوسائل · اننى أكره الحيل، خصوصا من الأطفال · ومن واجبى أن أبين لك بأنها لن تفيد · ستبقين هنا ساعة أخرى وذلك على شرط الطاعة والهدوء التامين ، وعندئذ سأخرجك ·

ـ أوه ، يا خالتى ! الرحمة ! سامحينى ! لا أقدر أن أتحمل ذلك ! عاقبينى بطريقة أخرى !

لم تصدقنى ، ظنت أننى أتظاهر ، وقالت :

ـ اسكتى ! ان هذه الضوضاء لشىء مقزز ·

· كانت بيسى وأبوت قد ذهبتا ، فدفعتنى مسز ريد ، بصبر نافد بسبب صراخى الوحشى ، وأعادتنى بخشونة الى الغرفة ، وأغلقت على بدون كلام آخر · وسمعتها وهى ترحل ، وبدأ رأسى بعدها يدور ويدور ، ثم سقطت على الأرض فاقدة الوعى !

الفصـــل الثالث

المرض

وما أذكره بعد ذلك هو تيقظي مع شعور بأنني كنت في حلم مزعج مع رؤية ضوء أحمر ساخن مفزغ أمامي تعترضه قضـــبان سميكة ٠ وسمعت أصواتا ، أيضا ، تتحدث برنين أجـوف ، وأحاسيسى مشوشة بالريبة والخوف ٠٠ ثم بدأت أعى بأن هناك من يحملنى الى أعلى بشكل لطيف ، ثم وضعت رأسى على الوسادة وشعرت بالراحة ٠

وبعد خمس دقائق ذابت ســحب التشويش ٠ وأدركت تماما بأننى كنت فى سريرى ، وأن الضـــوء

الأحمر كان يأتي من مدفأة غرفة الأطفال · كان الوقت مساء ، والشمعة مشتعلة على المائدة ... وتقف بيسى عند حافة السرير وفى يدها وعاء ، ويجلس على كرسى بجوار وسادتى رجل ينحنى فوقى ·

أحسست براحة لا يمكن التعبير عنها ، احساس بالحماية والأمان ، عندما علمت بوجـــود غـريب فى الغرفة ، شـخص لا ينتسب الى جيتسهيد ، ولا هو قريب لمسز ريد ، فنظرت الى بيسى ثم تفحصت وجه الزائر · لقد عرفته ، انه مستر لويد صاحب مخزن الأدوية والذى كانت تطلبه مسز ريد أحيـانا عندما يمرض أحد الخدم · أما بالنسبة لها ولأولادها فكانت تطلب طبيبا مختصا · وسألنى :

- حسن ، من أنا ؟

قلت له اسمه وأعطيته يدى فى نفس الوقت ، فأخذها مبتسما وقال :

- ستتحسنين فى القريب العاجل ·

ثم خاطب بيسى وحذرها وأوصاها بعدم ازعاجى أثناء الليل ، وبعد أن أعطى بعض التعليمات ، غـــادر الغرفة قائلا بأنه سيعيد الزيارة فى اليوم التـــالى · وسألتنى بيسى برقة :

ـ هل تشعرين بالنعاس يا آنسة ؟

لم أجرؤ على الاجابة عليهـــا خشية أن تغير من لهجتها اللطيفة ، ولكنى قلت :

ـ سأحاول ·

ـ هل تحبين أن تشربى ، أو تأكلى شيئا ؟

ـ كلا ، شكرا يا بيسى ·

ـ اذن ، سأذهب لأنام ، لكن يمكنك أن تنادى على اذا احتجت أى شىء ·

وذهبت بيسى الى غرفة الخدم التى كانت قريبة ، وسمعتها تقول :

ـ سارة ، تعالى ونامى معى بجانب غرفة الأطفال· اننى لا أجرؤ أن أكون بمفردى مع هذه الطفلة المسكينة

طول الليل . فقد تموت . ان اغماءها بهذه الطريقة لشيء غريب ، ربما شاهدت شيئا . والآنستين عاملتاها بقسوة .

وجاءتها سارة ، وبعد نصف ساعة من تبادل الهمس سويا نامت كلاهما ، أما أنا فلم أنم طوال الليل .. !

وفي اليوم التالي ، عند الساعة الثانية عشرة أخذوني من فراشي وألبسوني ، وجلست ملفوفة في بطانية بجوار المدفأة . وكنت أحس بضعف في جسدي لكن مشكلتي الكئود كانت تفكيري البائس الذى لا يمكن أن يوصف . ومع ذلك ، فكرت بأنني يجب أن أكون سعيدة ، فكل عائلة ريد خرجت بالعربة . وكانت أبوت مشغولة بالخياطة في غرفة أخرى ، أما بيسى التي تتحرك متنقلة في جناح الأطفال لتقوم بعملها كانت تحدثني من حين لآخر بعطف غير عادى .

ثم جاءوني بكعكة ، أيضا ، من المطبخ ، على طبق موشى بالرسوم الزاهية ، التي كنت أتوق لمذاقها منذ

فترة طويلة ، ولكنهم كانوا يمنعونى حتى من لمسها ٠٠ كان هذا الطبق اللذيذ موضوعا على ركبتى وطلبوا منى أن آكل منه ٠٠ معروف عقيم ! ٠٠ فليست عندى شهية للأكل !

وسألتنى بيسى اذا كنت أحب أن تأتينى بكتاب ، فرجوتها أن تحضر لى رحلات جليفر من المكتبة ٠ لقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة وأعجبت به ٠٠ ولكن عندما وضعوه بين يدى الآن ، ونظرت الى صور العمالقة والأقزام ، التى كنت أجد فيها متعة عظيمة ، الا أنها ملأت عقلى بالخوف ، فأغلقت الكتاب ٠

انتهت بيسى الآن من ترتيب المكان وبدأت تنشغل بالخياطة وأخذت فى أثنائها تغنى ٠ كان لها صوت جميل ، لكن الأغنية كانت حزينة ، عن طفلة يتيمة ٠٠ وعندما انتهت من الاغنية قالت لى :

ــ آنسه جين ، لا تبكى !

وكأنها كانت تقول للنار « لا تحترقى ! » ٠

وبعد قليل جاء مستر لويد ، وقال وهو يدخـل جناح الأطفال :

ـ ما هي الاخبار عندكم ؟ كيف حالها يا بيسى ؟

فاجابت بيسى باننى بخير • فاردف قائلا :

ـ اذن ، يجب أن تبتهج أكثر من ذلك • تعالى هنا يا آنسة جين • لقد كنت تبكين •• هل يمكن أن تخبريني لماذا ؟ هل تشعرين باى ألم ؟

ـ كلا ، يا سيدى •

فقالت بيسى :

ـ أوه ، اعتقد أنها تبكى لأنها لا تستطيع الخروج بالعربة مع العائلة •

فاجبت على فور :

ـ اننى لم أبك لمثل ذلك فى حياتى ! اننى اكره الخروج بالعربة • اننى ابكى لأننى بائسة !

فقالت بيسى :

ـ كلام فارغ يا آنسة !

بدا مســـتر لويد متحيرا بعض الشىء • وثبت عينيه على ، وأخذ يراقبنى لفترة ، ثم قال :

ـ ما الذى جعلك مريضة بالأمس ؟

فقالت بيسى ، متدخلة مرة ثانية فى المحادثة :

ـ لقد وقعت ٠٠

ـ وقعت ! لماذا ! الا تستطيع المشى فى سنها ؟

فشرحت له بكبرياء جريحة :

ـ لقد ضربت فوقعت على حـافة الباب ٠ لكن هذا ليس السبب الحقيقى لمرضى ٠٠

ورن فى هذه اللحظة جرس ، كان من أجل عشاء الخدم ٠ **فقال مستر لويد :**

ـ يمكنك أن تنزلى يا بيسى ، فهذا لك ٠

كانت بيسى تود البقاء ، لكنها لابد أن تذهب ، لأن التقيد بمواعيد وجبات الطعام مفروض بشكـــل صارم فى جيتسهيد ٠ واســتمر مســتر لويد فى كلامه **بعد ذهاب بيسى :**

ـ الوقوع لم يكن سبب مرضك ٠ ماذا ، اذن ، سبب مرضك ٠

– لقد حبسونى فى غرفة حيث ظهر لى شبح .. فقد رأيت شبح مستر لويد يبتسم وتبدو عليه الحيرة فى نفس الوقت .

– شبح ! هل تخافين من الاشباح ؟

– من شبح مستر ريد . لقد مات فى هـذه الغرفة . ولا تذهب بيسى ولا أى شخص آخر اليها فى الليل ، الا للضرورة القصوى . انه من القسوة أن يحبسونى بمفردى بدون حتى شمعة .

– هل ذلك ما جعلك بائسة ؟

– اننى تعيسة لأسباب أخرى .

– ما هى هذه الأسباب ؟ هل يمكن أن تخبرينى بعضا منها ؟

كم كنت أود أن أجيب اجابة وافية على هـذا السؤال ! .. ولكن الاطفال يمكن أن يحسوا بمختلف المشاعر ، ولكن لا يمكنهم أن يشرحوا أحاسيسهم .

– لشىء واحد ، ليس لى أب ولا أم ولا أخوة أو أخوات .

ـ ولـــكن عنـــدك زوجة خالك وأبنـاء خالك العطوفين ٠

ـ لكن جون ريد طرحنى أرضا ، وزوجة خالى حبستنى فى الغرفة الحمراء ٠

وسكت مستر لويد ، وبدا عليه التفكير ، ثم استفسر قائلا :

ـ ألا تعتقدين أن جيتسهيد مكان رائع الجمال ؟ ألست محظوظة أن تستطيعى العيش هنا ؟

ـ انه ليس بمنزلى يا سيدى ، وتقول أبوت ان حقوقى أقل من حقوق أى خادم ٠

ـ لكنك لا تودين مغادرة مثل هذا المكان الرائع ؟

ـ اذا كان لدى أى مكان آخـــر لأذهب اليه ، لكنت سعيدة لمغادرته ٠

ـ هل لديك أى أقارب آخرين ينتسبون لأبيك ؟

ـ لا أدرى ٠ لقد سألت الخالة ريد ذات مرة ، فقالت لى من المحتمل أن يكون لى بعض الأقارب الفقراء من عائلة اير ، ولكنها لا تعرف أى شىء عنهم ٠

– هل تحبين الذهاب الى المدرسة ؟

أخذت أفكر · كنت أعرف بالكاد ما هي المدرسه · كان جون ريد يكره مدرسته ، وكان يتحدث عن أستاذه بشكل مهين · لكن آراء جون ريد ليست آرائى · وما حكته بيسى عن نظام المدرسة كما روته لها بنات العائلة التى كانت تعيش عندها قبل قدومها الى جيتسهيد كان مزعجا ·· ولكن شرحها لبعض انجازات هؤلاء البنات كان ساحرا · كانت تتفاخر برسوم الطبيعة والزهور ، التى قمن بها ، وبالاغنيات التى كن يشدون بها ، وبالموسيقى التى يستطعن عزفها ، والكتب الفرنسية التى استطعن ترجمتها حتى تحركت روح المنافسة عندى · بالاضافة الى أن المدرسة قد تكون تغييرا شاملا ، بداية لحياة جديدة ·

فقلت فى النهاية :

– فى الحقيقة أحب أن أذهب الى المدرسة ·

فقال مستر لويد وهو يقف :

– حسن ، من يدرى ماذا سيحدث ؟

وعندما عادت بيسى فى تلك اللحظة قال لها :

ـ هل عادت سيدتك ؟ أحب أن أتحدث معهـــا قبل ذهابى •

وفى ذلك المساء ، عندما جلست بيسى مع أبوت يخطن فى جناح الأطفال مفترضتين اننى نائمة ، علمت من حديثهما أن مستر لويد قـد حث مســـز ريد أن ترسلنى الى المدرسة •

وسمعت لأول مرة فى نفس المناسبة من كـــلام أبوت لبيسى بأن أبى كان رجل دين فقير ، وأن أمى قد تزوجت منه ضد رغبات أصدقائها ، وأن جـــدى قد غضب لعصيانها ولم يترك لها شيئا عند وفاته ، وأن أبى قد أصيب بالحمى بعد سنة من الزواج أثنـاء زيارته للفقراء ، وأن أمى قد حملت العدوى منـه ، وأن كليهما قد توفى بعد ذلك •

الفصل الرابع

مستر بروكلهيرست

كان اليوم الخامس عشر من شهر يناير ، حوالى الساعة التاسعة صباحا . وكانت بيسى قد نزلت الى الانطار ، واليزا ترتدى قبعتها ومعطفها لتذهب وتطعم دجاجاتها ، مهمة كانت مغرمة بها حيث كانت تبيع البيض لمدبرة المنزل بربح وفير .. وكانت جيورجيانا تضع زهورا صناعية فى شعرها . أما أنا فكنت أرنب السرير ، حيث كثيرا ما استخدمتنى بيسى كخادمة اضافية لجناح الأطفال .

وكان يمكن رؤية البوابات الرئيسية من نافذة

جناح الأطفال • وفي هذه اللحظة انفتحت تماما ودلفت عربة الى الداخل • ووقفت أمام المنزل ، ورن جـــرس الباب بصوت مرتفع ، ثم سمح للضيف بالدخول • وجاءت بيسى راكضة للطابق العلوى •

ـ آنسة جين ، ماذا تفعلين ؟ هل غسلت وجهك ويديك هذا الصباح ؟

ورتبت لى شعرى بالفرشـاة بسرعة وقالت لى أن أنزل فى الحال ، لأننى مطلوبة فى غرفة الافطار •

فنزلت السلم ببطء •• فلقد مضت مدة طويلة لم أمتثل أمام مسز ريد ، ووقفت خائفة مرتعشة أمام باب الغرفة • ما الذى فعله فى الخوف البائس الجبان من جراء العقاب الجائر ؟ واخذت اتساءل :

ـ من يا ترى يـريدنى ؟ من ســارى مع الخـالة ريد فى الغرفة ؟ •• هل سأرى رجلا أم امرأة ؟

وأدرت المقبض وفتحت الباب ومشيت ورفعت بصرى الى ••• عامود أسود ! هذا كان على الأقـــل الشكل المائل فوق السجادة كما ظهر لى عنــد أول نظرة •

وكانت مسز ريد تحتل مقعدها المعتاد بجـو
النار . فاشارت لى بالاقتراب ، وهى تقول للغريب :

ـ هـــذه هى البنت الصغيرة التى قدمت لـك
طلبها .

وأدار رأسه ببطء ، وأخذ يتفرسنى وقال بوقار
وبصوت عميق :

ـ انها صغيرة . ما هو سنها ؟

ـ عشر سنوات .

فقال باندهاش :

ـ كثير عليها .

ثم اردف يخاطبنى :

ـ اسمك يا صغيرة ؟
ـ جين اير يا سيدى .
ـ حسن ، جين اير ، وهل أنت طفلة طيبة ؟

فلذت بالصمت . وأجابت مسز ريد عنى بهزة
من رأسها .

واستمر قائلا :

– لا يوجد منظر أكثر حزنا من الطفل السيء . الله سيعاقب الأشرار . هـل تصلين فى الصـــباح والمســـاء ؟

– أجل يا سيدى .

وعندئذ تدخلت مسز ريد فى المحادثة .

– مستر بروكلهيرست ، اعتقد باننى أخبرتك فى خطابى الذى كتبته لك منذ ثلاثة أســـابيع ، بان هذه البنت الصغيرة ليست لديها الشخصية التى يجب أن تكون عليها . فاذا سمحت لها بالالتحاق بمدرســة لوود ، ساكون سعيدة ، على أن تراقبهـــا المدرسات جيدا ، وأهم شيء أن تراقبوا اسوأ عيب فيها ، ميلها للخداع .

كان لدى سبب وجيه لخوفى من مسز ريد ، لان من طبيعتها أن تجرح احاسيسى بقسوة . فهذا الاتهام الذى أدلت به أمام غريب ، طعننى فى قلبى ولاحظت أنها تحاول ما فى وسعها لتتلف حياتى الجديدة التى آمل منها الكثير .

وقال مستر بركلهرست :

ـ فى الحقيقة الخداع عيب محزن فى الطفل ٠ سيراقبونها يا مسز ريد ٠ سوف أخبر مس تمبــل والمدرسات ٠

واستمرت زوجة خال فى قولها :

ـ أود أن تنشأ على أخلاق تتناسب مع مستقبلها، لتكون مفيدة ومتواضعة ٠ أما بالنســبة للعطـــلات والاجازات ، فسوف تقضيها دائما ، بعد اذنك ، فى لوود ٠

ـ ان قراراتك حكيمة ياسيدتى ! ٠٠ أيتها البنت الصغيرة ، اليك بهذا الكتــاب ، إقرأى الجزء الذى يتضـــمن الموت المفاجىء لمارتا ، الطفلة الشريرة التى كانت تكذب ٠

وبعد انصرافه ، بقيت أنا ومسز ريــد بمفردنا سويا ٠ ومرت دقائق قليلة فى ســـكون ، اذ كانت تخيط وأنا أراقبهـــا ٠ فتحركت عاطفــة الغضب فى قلبى ٠

ورفعت مسز ريد بصرها ، وركزت عينيها على عيني وتوقفت أصابعها عن العمل وكان أمرها لي :

ـ أخرجي من الغرفة · عودي الى جناح الأطفال !

فنهضت وذهبت الى الباب ، ثم عدت ثانية عبر الغرفة بالقرب منها · وجمعت كل طاقاتي وهاجمتها بهذه الجملة :

ـ انني لست مخادعة · لو كنت كذلك لقلت بأنني أحببتك ، ولكني أعلن بأنني لا أحبك · بل أكرهك أكثر من أي شخص في العالم ، ماعدا جون ريد · أما هذا الكتاب عن الكاذبة فلتعطيه لابنتك جيورجيانا لأنها هي التي تكذب لا أنا !!

وظلت يد مسز ريد بلا حراك على شغلها وظلت عيناها الباردتان مسلطتين علي ، ثم سألتني بصوت شخص يخاطب آخر في نفس عمره لا الذي يخاطب طفلة :

ـ هل من مزيد لتقوليه ؟

فواصلت قولي وانا انتفض من راسي لأخمص قدمي بشكل لا ارادي :

ـ أنا سعيدة انك لست قريبة لى . لن أناديك بخالتي ثانية ما حييت . واذا سألنى أحد هل أحبك وكيف كنت تعاملييننى ، سوف أقول بانك ليس عندك رحمة وأنك عامليتنى بقسوة بائسة .

ـ كيف تجرؤين على قول ذلك ، ياجين اير ؟

ـ كيف أجرؤ ، مسز ريد ؟ لأنهـا الحقيقة . تعتقدين بأننى بلا شعور ، ويمكن أن أعيش بدون ذرة حب ورحمة . سوف أذكر كيف حبستينى فى الغرفة الحمراء ، رغم فزعى وتوسلاتى بأن ترحمينى .. وكان هذا العقاب الذى جعلتينى أعانى منه لأن ولدك الشرير قد ضربنى وطرحنى أرضا بدون سبب . والناس تظنك سيدة طيبة ، لكنك سيئة وقاسية القلب !

وقبل أن أنتهى من هذه الاجـــابة بدأت روحى تشعر بأغـرب معنى للحرية . ونظرت مسز ريد فى خوف ، ووقع شغلها من على ركبتها ، وكادت أن تدير وجهها وكأنها ستبكى .

ـ جين ، انك مخطئـة . ما حـكايتك ؟ لـماذا ترتعدين بهذا العنف ؟ .. هل تريدين بعض الماء ؟

ـ كلا ، مسز ريد ٠

ـ هل هناك أى شيء آخر ترغبينه ياجين ؟ ٠٠ صدقيني ، انى أرغب فى أن أكون صديقتك ٠

ـ لست انت ٠ انك أخبرت مستر بروكلهيرست بأنني ذات شخصية سيئة ، وسوف أخبر كل شخص فى لوود عنك ، وما فعلتيه ٠

ـ جين ، انك لاتفهمين هذه الأشياء ٠ يجب على الكبار أن يصححوا أخطاء الصغار ٠

ـ الخداع ليس من أخطائى ٠

ـ لكن يجب أن تعترفى بانك انفعالية ٠ عودى الآن الى جناح الأطفال ، ياعزيزتى ، ونامى قليلا !

ـ اننى لست عزيزتك ٠٠ أرسليني للمدرسة فورا يا مسز ريد ، لأننى أكره أن أعيش هنا ٠

فتمتمت مسز ريد لنفسها قائلة :

ـ سوف أرسلها للمدرسة فورا بالفعل ٠

ولملمت شغلها وتركت الغرفة فجأة ٠٠

الفصل الخامس

رحلة بالعربة

عندما كانت الساعة تدق الخامسة من صباح اليوم التاسع عشر من يناير ، جاءت بيسى بشمعة الى ركنى الصـــغير ، فوجـدتنى مرتدية ملابسى ومســـتعدة للرحيل .. كنت سأغادر جيتسهيد فى ذلك اليـوم بعربة تمر على المنزل فى تمام الساعة السادسة . ولقد أشعلت بيسى مدفأة جناح الأطفال ، وبدأت الآن فى احضار افطارى . بعض الأطفال يمكن أن يأكلوا عندما يفكرون فى الرحيل ، أما أنا فـلا .. وعنـدمـا حثتنى بيسى ، بلا جدوى ، أن أتناول قليلا من الحليب المغلى مع الخبز الذى أعدته لى لم أستطع ، فلفت لى قطعا

من الكعك فى ورقة ووضعتها فى حقيبتى ، ثم ساعدتنى فى ارتداء معطفى وقبعتى ، ثم نزلنا .. وعندما مررنا على غرفة نوم مسز ريد قالت بيسى :

– هل ستدخلين لتودعى مسز ريد ؟

– كلا يا بيسى ، لقد جاءت الى سريرى فى الليلة الماضية وقالت لا داعى ، أن تزعجينى فى الصباح ، أو تزعجى الآنستين .. ثم أخبرتنى أن أذكر أنها كانت لى دائما أفضل صديق .

– وماذا قلت لها يا آنسه ؟

– لا شىء . غطيت وجهى بالملاءة والتفت ناحية الحائط .

– كان هذا خطأ يا آنسة جين .

صرخت عند مرورنا عبر الصالة خارجين من الباب الأمامى :

– وداعا لجيتسهيد !

وكان الظلام دامسا وكانت بيسى تحمل مصباحا وعند اسراعى نحو البوابة أحسست ببرد ورطوبة

الصباح الشتوى . وكان صندوقى الذى أنزلوه الى هناك ليلة أمس جاهزا .. وفى الساعة السادسة الا دقائق قليلة سمعنا صوت عجلات العربة تعلن عن قدومها .. هاهى بجيادها الاربعة محملة بالمسافرين. وحث سائق العربة والحارس بصوت عال أن نسرع ورفعا صندوقى وأخذانى من رقبة بيسى التى تعلقت بها بالقبلات .

وقالت للحارس وهو يرفعنى الى داخل العربة :

ــ أوصيك أن تهتم بها .

واغلق الباب . وبهذه الطريقة انفصلت عن بيسى وجيتسهيد . بهذه الطريقة انتقلت الى المجهول ، وكما يبدو لى الى أماكن بعيدة وغامضة .

أتذكر القليل عن الرحلة . كان اليوم يبدو بلا نهاية وكأننا نقطع مئات من الأميال فى الطريق . ومررنا عبر مدن وقرى عديدة . وفى احدى المدن الكبيرة توقفت العربة ، وسحبوا الجياد ، ونزل الركاب لتناول الغداء ، وحملونى الى فندق صغير حيث قدم لى

الحارس طعاما لكنني لم أستطع الاكل ·· وتركني في حجرة كبيرة حيث اخذت أذرعها ذهابا وايابا وأنا خائفة من أن يخطفني احد ، لأنني كنت قد سمعت عن سرقة الاطفال في كثير من قصص بيسى ·

وواصلنا طريقنا ·· وتحول الجو الرطب الضبابي الى شفق · لم نمر على مدن بعد ذلك ، فالمناظر الطبيعيه تغيرت وظهرت التلال الرمادية الضخمة عن بعد ونزلنا الى واد محفوف بالغابات المعتمة ·

ونمت أخيرا ، ولكن وقوف العربة أيقظني · وانفتح الباب ووقفت سيدة بجانبه ·· ثم رأيت وجهها ورداءها على ضوء المصابيح ، **وسألت :**

ـ هل يوجد هنا بنت صغيرة اسمها جين اير ؟

فاجبت :

ـ اجل ·

وانزلوني ، وكذلك صندوقي واندفعت العربة في طريقها ··

كنت متيبسة من الجلوس طويلا ، ومشوشة من ضوضاء العربة وحركتها ٠٠ وبعد أن استعدت أحاسيسى نظرت حولى والمطر والريح والعتمة تملأ الهواء ٠ ومع ذلك رأيت أمامى بشكل باهت حائطا وبابا مفتوحا فيه ٠ ومررت مع دليلى الجديد عبر هذا الباب فوجدت منزلا به نوافذ كثيرة والاضواء مشتعلة فى بعض منها ، وصعدنا طريقا عريضا أودى بنا الى باب ، ثم قادتنى عبر ممر الى غرفة بها مدفأة وتركتنى بمفردى ٠

الفصل السادس

ملجأ لوود لليتيمات

وبعد أن ادفأت أصابعي المتجمدة فوق المدفأة ، نظرت حولي في الغرفة .. كانت غرفة جلوس ، ليست في فخامة غرفة الاستقبال في جيتسهيد ، لكنها مريحة بما فيه الكفاية .

ودخلت سيدة طويلة تتبعها أخـــرى ، وقالت الأولى :

ـ الطفلة صغيرة على أن يرسلوها بمفردها .

ونظرت الى برهة ثم اضافت قائلة :

– من الأفضل أن تضعوها فى فراشها حالا · انها تبدو متعبة · هل انت متعبة ؟

ووضعت يدها على كتفى أثناء حديثها لى ·

– قليلا ، يا سيدتى ·· !

– وجائعة ايضا بدون شك ·· مس ميللر ، قدمى لها العشاء قبل أن تذهب للنوم · هل هذه هى المرة الأولى التى تتركين فيها والديك لتأتى للمدرسة يا ابنتى الصغيرة ؟

فأوضحت لها انى يتيمة بلا والدين · وسألتنى كم مضى على وفاتهما ، ثم عن سنى ، واسمى ، واذا كنت أستطيع القراءة والكتابة وأداء القليل من الحياطة· ثم لمست وجهى بأصابعها برقة قائلة بأنها تأمل بان أكون بنتا ممتازة ، وأذنت لى بالانصراف مع مس ميللر ·

كانت هذه السيدة التى تركناها · كما علمت فيما بعد ، مس تمبل ، رئيسة المدرسات والمسئولة

عن الملجا · أما مس ميللر فكانت أصغر وعادية اكثر وكان يبدو عليها التعب ، وقادتنى عبر ممرات طويلة وحجرات الى أن سمعت همهمة أصوات كثيرة بعـدها دخلت حجرة واسعة طويلة بها مناضد كبيرة ، اثنتان عند كل ركن ، وعلى كل واحدة يشـتعل زوج مـن الشـموع ، ويجلس من حولها مجموعة من البنات من كل الاعمار ، من تسعة أو عشرة الى عشرين كن جميعهن يرتدين اللون البنى · كانت سـاعة المذاكرة وكـن منهمكات فى عمل واجباتهن ·

وأشارت مس ميللر لى بالجلوس · ثم سارت الى راس الحجرة وقالت صائحة :

ــ اجمعن الكراسات وضعوهن بعيدا ·

نهضت أربع بنات طوال من مناضـــد مختلفة ومررن يجمعن الكراسات · ثم أعطت مس ميللر أمرا آخر :

ــ احضرن صوانى العشاء ·

ذهبت البنات الطوال وعدن بعد قليــل وكل

واحدة تحمل صينية بها قطع من الخبز مرتبة عليها ، وابريق من الماء مع كوب فى الوسط ٠٠ تم تفريق الخبز والماء لمن أرادت ، وعندما جاء دورى شربت ، حيث كنت عطشى ، ولكنى لم آكل لاحساسى بالتعب ٠

وعند الانتهاء من الطعام وتلاوة الصلوات تحركت البنات بانتظام ٠٠ اثنتين اثنتين ، لصعود السلم ٠٠ وكنت أقاوم النوم ، لذلك لم ألاحظ غرفة النوم جيدا غير أنها مستطيلة مثل غرفة الدراسة ٠٠ وساعدتنى مس ميللر فى خلع ملابسى ، وبسرعة امتلأت سرائر كل صف من الصفوف الطويلة وفى عشر دقائق انطفأ الضوء الوحيد ٠

مرت الليلة بسرعة ٠ كنت متعبة حتى لأحلم ٠ وعندما فتحت عينى كان الجرس يرن بصوت عـال ٠ وكانت البنات مستيقظات ويرتدين ملابسهن ٠٠ ولم يظهر بعد ضوء النهار والمصباح لا يزال يشـتعل فى الحجرة ٠ ونهضت أنا أيضا ، وارتديت بدون رغبة ٠

كان الجو باردا بشـــكل قارس ٠ واغتسلت

عندما وجدت حوضا خاليا لا تستعمله احداهن ، حيث كان هناك حوض واحد لكل ست بنات ثم رن الجرس ثانية ٠٠ فوقف الجميع فى صفوف ، اثنتين اثنتين ، وبهذا النظام نزلن السلم ، ودخلن حجرة الدراســـة الباردة سيئة الاضاءة ٠

وهنا رتلت الصلوات ، ثم نادت بعد ذلك مس ميللر قائلة :

ـ شكلن الفصول ٠

تبع ذلك كمية كبيرة من الضوضاء والحركة لعدة دقائق ، كـررت مس ميللر أثنـــاءها قولهـــا ، « السكون ! » و « النظام ! » وعندما انتهى كل شيء رأيت البنات منتظمات فى أنصاف أربع دوائر ، وأمام كل منها منضدة وكرسى ٠ وجميع البنات يحملن كتبا فى أيديهن ، وهنــاك كتاب كبير موضـــوع على كل منضدة ٠٠ وتبع ذلك فترة صمت لبضعة دقائق ٠ وسارت مس ميللر من فصل لآخـر تسكت البنات الهامسات ٠٠

رن جرس بعيد ٠ فدخلت ثلاث سيدات الحجرة

فى الحال · سارت كل واحدة منهن الى منضدة وأخذت مس ميللر المنضدة الرابعة ، التى من حولها تجمعت البنات الصغيرات ·· ونادونى لهذا الفصل الأصفر !

بدأ العمل بعد ذلك بقراءة مطولة من الانجيل · وعند الانتهاء من ذلك كان ضوء النهار قد حل · ورن الجرس مرة أخرى ، فسارت الفصول الى حجرة أخرى للافطار · كم كنت سعيدة لفكرة أن أحصل على شىء لآكله ! اذ كنت على وشك الاعياء من قلة الأكل ، حيث لم آكل الا القليل فى اليوم السابق ·

وضعت أوان وأوعية ذات أبخرة تتصاعد منهـا على موائد حجرة الطعام ، ولكن لخيبـــة ظنى كانت الرائحة غير مشجعة · ولاحظت علامات استياء عـام· ومن بداية الموكب بدأت البنات الطوال فى الفصـــل الأول يتهامسن « مقرف ! العصيدة محروقة ثانية ! »·

رتلت الصـــــلاة ، ثم احضرت الخادم الشاى للمدرسات وبدأ الطعام ·

ولأنى كنت جائعة بشكل عنيف ، حتى أصبحت

على وشك الاغماء ، فقد أكلت بشغف ملعقة مـــن نصيبي دون التفكير فى المذاق ، ولكنى عندما أرضيت قرصة الجوع الأولى ، لم أستطع أكل المزيد ٠ وتحركت الملاعق ببطء من حـــولى ٠ ورأيت كل بنت تذوق العصيدة ، وتحاول أن تبتلعها ٠٠

وعندما رتلت الصلاة مرة أخرى ، عدنا الى حجرة الدراســة ٠ كنت مع آخر من خرجن ، وعند مرورى رأيت احدى المدرسات تتناول طبقا وتتذوق العصيدة٠ ونظرت الى الأخريات اللاتى عبرت وجـــوههن عـــن الاستياء ، فعلمت أنهن جميعا لا زلن جائعات ٠

ومرت ربع ساعة قبل بدء الدروس مرة أخرى، تكلمت أثناءها كل واحدة بصوت عال وبحرية ٠ وكان كل الحديث عن الافطار ٠ سمعت البعض يذكر اسم مستر بروكلهيرست ٠ وهزت مس ميللر رأسها بعدم موافقتها على ما يقمن به ، لكنها لم تحاول ايقاف التذمر العام ٠ لاشك أنها متعاطفة معنا ٠

ومن الساعة التاسعة خيم الهدوء التام ، ودخلت

رئيسة المدرسات ونادت على الفصـــل الاول ليلتف حولها ، واعطت درسا عن بلدان العالم · وانشــغلت الفصول الأخرى مع مدرسات أخريات للتاريخ والقواعد ثم تبعتها دروس فى الكتابة والحساب وأعطت مس تمبل دروس الموسيقى لبعض البنات الكبار ··

واخيرا دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ظهرا ونهضت مس تمبل وقالت :

ـ أريد أن أوجه كلمة للطالبات · لقد جاء هـذا الصباح افطار لم تستطعن أكله · فلابد أنكن جائعات لذلك طلبت وجبة مكونة من الخبز والجبن وســتقدم للجميع ·

ونظرت المدرسات اليها باندهاش ، فاضـافت قائلة :

ـ هذا القرار اتخذته على مسئوليتى ·

وتركت بعدها الحجرة فى الحال ·

وجاء الخبز والجبن فورا ووزع على الجميع · وسرت المدرسة كلها لهذه اللفتة ·· ثم جاء الامــر

بالتوجه الى « الحديقة ! » فتبعت الطالبات حتى وجدت نفسى فى الخارج ..

كانت الحديقة عبارة عن تحويطة واسعة لها جدران عالية ، وفى وسطها مساحة مقسمة الى عدد من المربعات الصغيرة تعطى لكل طالبة لزراعتها كحدائق ولابد أنها ستبدو فاتنة عندما تمتلىء بالزهور .. أما الآن فكل شىء شتوى المنظر .. وأخذت البنات القويات يركضن ويلعبن لعبات رياضية ، ولكن كثيرات من الطالبات النحيفات الضعيفات تجمعن سويا تحت مكان مغطى فى نهاية الحديقة للاحتماء والدفء وأخذت أسمع تلك السعلات فى الهواء الرطب الضبابى .

لم أتحدث بعد مع أحد ، كما لم يلاحظنى منهن أحد . فوقفت وحيدة ، لكننى كنت معتادة على أن أكون بعيدة عن الآخرين . واستندت على أحد الاعمدة لأتسلى بالمراقبة ، محاولة أن أنسى البرد . ورفعت بصرى الى المنزل قرأيت الكلمات التالية محفورة فى الحجر فوق الباب :

ملجا لوود لليتيمات · قامت ببنائه هذه المدرسة نعومى بروكلهيرست من بروكلهيرست هول ·

قرات هذه الكلمات ، وعند الانتهاء منها سمعت سعلة من خلفى ، فالتفت فرأيت بنتا جالسة على مقعد تقرأ · وعندما كانت تقلب الصفحة تصادف ورفعت بصرها **فقلت لها على الفور :**

ـ هل كتابك مسل ؟

فاجابت بعد ما تفحصتنى للحظة :

ـ اننى أحبه ·

ـ ما هو موضوعه ؟

فاجابت البنت وهى تقدم لى الكتاب :

ـ يمكنك النظر فيه ·

كنت أحب القراءة أنا أيضا ، لكنى لاحظت أنه صعب على · فاعدته اليها وتناولته هى فى هدوء · وكانت على وشك أن تعود لقراءة قصتها ، ولكنى كنت جريئة مرة أخرى لأزعجها ·

ـ هل يمكن أن تخبريني معنى الكتابة المحفورة على الحجر فوق الباب ؟ ٠٠ ما معنى ملجأ لوود ؟

ـ هذا المنزل الذى جئت لتعيشين فيه ٠ أعتقد انك يتيمة ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، لقد توفى والداى الاثنان قبل أن أعى ٠٠

ـ حسن ، جميع البنات فى هذه المدرسة قد فقدن أحد والديهم أو كليهما ٠ هذا المكان هو لتربية الأيتام ٠

ـ ألا ندفع نقودا ؟ هل يرعوننا بدون مقابل ؟

ـ ندفع أو أصدقاؤنا يدفعون لنا خمسة عشر جنيها فى السنة لكل طالبة ٠ وهذا لا يكفى ، فالباقى يدفعه رجال وسيدات كرماء من المنطقة ومن لندن ٠

ـ ومن هى نعومى بروكلهيرست ؟

ـ أنها السيدة التى بنت الجزء الأكبر من هذا المنزل ٠ وابنها يتحكم ويدير كل شىء هنا !

ـ اذن هذا المنزل لا يخص السيدة الطويلة التى سمحت بأن نحصل على بعض الخبز والجبن ؟

ـ مس تمبل ؟ أوه ، كلا ! أتمنى ذلك ٠ انهـــا المسئولة أمام مستر بروكلهيرست عن كل ما تقوم به هنا ٠ وهو يشترى كل طعامنا وملابسنا ٠

ـ هل هو رجل طيب ؟

ـ انه رجل دين ٠

ـ هل تحبين المدرسات ٠

ـ أجل ٠

فسألت عن أسمائهن وشخصياتهن ، ومنذ متى وهى فى المدرسة ، وآخر شىء ، اذا كانت ســـعيدة هناك ٠

ـ لقد سألت اســـئلة كثيرة ٠ والآن أريد ان اقرأ ٠

ولكن الجرس رن فى هذه اللحظة ، ودخـــل الجميع الى المبنى ، حيث يقدمون الغذاء فى وعـــاءين ضخمين من الصفيح ، تصدر منهما رائحة نفاذة لدهن

كريه ، فكانت الرائحة ليست أفضل من رائحة الافطار وكان الطعام عبارة عن خليط من البطاطس الرديئـــة مع قطع غريبة من اللحم الاسمر المدهن مطبوخة سويا· آكلت على قدر ما استطعت وأخذت أتساءل هل الاكل بهذا الشكل كل يوم ·

وكان علينا بعد الغداء ، أن نتلقى دروسا حتى الساعة الخامسة ·· والحادث الوحيد الذى رأيتـــه هو طرد البنت التى تحدثت معها من فصل التاريـخ بشكل مهين لتقف فى وسط حجرة الدراسة الكبيرة· بدا العقاب لى جارحا لكرامة الانسان بشكل عميق ، وخصوصا لبنت كبيرة مثلها ــ كانت تبدو فى الثالثة عشرة من عمرها أو أكثر · ولدهشتى لم تبك ، ولم يحمر وجهها ·

وسألت نفسى :

ــ كيف يمكنها أن تحتمل ذلك بهدوء ؟ كان يبدو عليها أنها تفكر في شيء آخر غير عقابها · كانت تنظر

الى ما يمكنها تذكره ، لا الى الواقع بالفعل · ترى أى نوع من البنات هى ؟ طيبة أم سيئة ؟

وبعد الساعة الخامسة مباشرة تناولنا وجبـــة أخرى · وكانت عبارة عن فنجان من القهوة ونصــف قطعة خبز أسمر · فأكلتها بشغف ولكنى ظللت جائعة تبع ذلك نصف ساعة لعب ، ثم دراسة ، ثم كوب من الماء وقطعة من الخبز ، فالصلاة ثم النوم · وهكذا كان يومى الأول فى لوود ··

الفصل السابع

هيلين بيرنز

بدأ اليوم التالى كسابقه بالاســـتيقاظ وارتداء الملابس قبل شروق الشمس ، ولكن هذا الصباح كان باردا جدا لدرجة أننا لم نستطع الاغتسال ، لان الماء كان متجمدا فى الأباريق ٠

وقبل أن تنتهى الساعة الطويلة لقراءة الانجيل، خيل الى أنى سأموت من البرد ٠ وجاء موعد الافطار أخيرا ، ولم تكن العصيدة محروقة هذا الصـــباح ٠ كانت قابلة للأكل ولكن الكميات كانت قليلة ٠٠ وكم كان نصيبى ضئيلا ! حتى تمنيت أن يتضاعف !

وخلال النهار ، بدأت كتلميذة فى الفصـــل الرابع ·· وفى البداية ، ولأنى لم أكن معتادة عـلى التعلم عن طريق الحفظ ، بدت الدروس طويلة وصعبة وأربكنى التنقل المتكرر من موضوع لآخـــر ، فكنت مسرورة عندما وضعت مس سميث بعض أعمـــال الخياطة فى يدى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهـــر ، وارسلتنى الى ركن هادىء من حجرة الدراسة ·

وفى تلك الساعة كانت معظم البنات الأخريات يقمن بأعمال الخياطة أيضا ، ولكن فصلا واحدا كان لا يزال يقف حول مدرسة تقرأ ، ولما كان كل شىء هادئا ، أمكن سماع الدرس ، مع اجابات التلميذات وتوجيهات المدرسة · كان درسا فى التاريخ ، كمـا لاحظت أن رفيقتى فى اليوم الســابق كانت على قمة الفصل الى أن أخطأت بعض الأخطاء فأرسلتها المدرسة الى نهاية الفصل · وحتى عنـــدئذ عنفتها باستمرار بكلمات مثل تلك :

– بيرنز (هكذا كان اسمها : فالبنات كـــن

يعرفن بالقابهن) « انك تقفين على جانب حذائك · اعتدلى فى وقفتك فورا » ··« بيرنز ، ارفعى رأسك »·

وبعد قراءة الفصل مرتين اغلقت الكتب وتـم اختبار البنات · وبدا انه كان اختبارا صعبا عـلى معظم البنات ، لكن بيرنز كانت مستعدة بالاجابات على كل نقطة · وكانت تتوقع أن المدرسـة ، مس سكاتشيرد ستمتدحها ·· ولكن بدلا من ذلك صرخت فجأة :

ـ أنت يا بنت يا قذرة يا كئيبة ! ·· انك لم تنظفى أظافرك هذا الصباح !

ولم تجب بيرنز على الاطلاق · وكنت مندهشـة من سكوتها · وفكرت :

ـ لماذا لم « تخبر المدرسة » بأن الماء كان متجمدا هذا الصباح ؟!

ولفتت انتباهى مس سميث التى أرادت أن ترى شغلى · وعندما عدت الى مقعـدى ، كانت بيرنز على

وشك مغادرة الحجرة تنفيذا لأمر من مس سكاتشيرد، وعادت بعد نصف دقيقة حاملة فى يدها حزمة من العصى مربوطة سويا من أحد طرفيها . وقدمتها للمدرسة باحترام . فقامت مس سكاتشيرد بضربها فى الحال عدة ضربات بحدة . ولم تظهر دمعة واحدة فى عين بيرنز ، وعندها توقفت عن خياطتى لأن أصابعى توقفت بسبب الغضب من هذا المنظر .. أما وجهها المفكر فلم تتغير أية قسمة من قسماته ولا أى تعبير من تعبيراته .

واثناء ساعة اللعب ذلك المساء ، توجهت الى المدفأة . فوجدت بيرنز راكعة بجانبها ، وكل انتباهها كان مركزا فى كتاب . **فسألتها** :

– هل هذا نفس كتاب الأمس ؟

– أجل ، لقد انتهيت منه لتوى .

ثم أغلقته فسألتها :

– ما اسمك الأول الذى يسبق بيرنز ؟

– هيلين !

ـ هل جئت من بعيد يا هيلين ؟

ـ لقد جئت من مكان في الشمال على حـــدود اسكتلندا ٠

ـ لابد أنك ترغبين في مغادرة لوود ٠

ـ كلا ، لماذا ؟ لقد أرسلوني هنا لأتعلم ، فلا فائدة من ذهابي قبل أن يتم ذلك ٠

ـ لكن هذه المدرسة مس سكاتشيرد قاسية جدا عليك ٠

ـ قاسية ؟ ابدا على الاطلاق ! انها شـــديدة ٠ انها تكره الأخطاء ٠

ـ اذا كنت في مكانك وضربتني ، لكنت أخـذت العصا من يدها وكسرتها تحت أنفها ٠

ـ اذا فعلت ، فسيطردك مستر بروكلهرست من المدرسة ، وسيسبب ذلك حزن اقربائك ٠

ـ لكن يبدو لي من العار أن اضرب أمام الجميع٠ انني لا أحتمل ذلك ٠

– انه من الضعف والسخافة القـــول بانك لا تستطيعين احتمال ما هو ضروري أن تحتمليه ·

واستمعت اليها باندهاش · ولم اســتطع فهم وجهة نظرها ·

– تقولين بأن لك أخطاء ياهيلين · مــا هى ؟ بالنسبة لى فانك ممتازة ·

– اننى مثل ما تقول مس سكاتشيرد مهملة وغير منظمة ·· اننى من النادر أن أحتفظ بالاشياء مرتبة· اننى أنسى القواعد التى يلزموننا بها ·· فأنا اقــرأ عندما يجب أن اذاكر دروسى !

– هل مس تمبل شديدة معــك مثــل مس سكاتشيرد ؟

فارتسمت ابتسامة رقيقة على وجهها وقالت :

– مس تمبل كلهــا طيبة · فهى ترى أخطائى وتخبرنى عنها بلطف · وعندما أعمل أى شىء بشكل جيد تمدحنى بكرم ·

ـ وعندما تدرس لك مس تمبل هل تسرحين بافكارك ؟

ـ كلا ، من النادر ، لأن ما تقوله عادة يكـــون مشوقا بالنسبة لى ٠

ـ المفروض ان تكونى طيبة مع من هم طيبين معك ٠ هذا ما أرغب أن أكونه ٠ ولكن عندما نضرب بدون سبب ، فيجب أن نعيد الضربة بشدة ٠

ـ ليس العنف أفضل السبل لقهر الكراهية ٠ فالطيبون يحاولون أن يحبوا أعداءهم ويباركوا مـن يلعنونهم ٠

ـ اذن يجب على أن أحب مسز ريد وأبارك ابنها جون ، وهو الشىء المستحيل ٠

وسألتنى هيلين بدورها أن أشرح لها ، فسردت قصة معاناتى السابقة ٠ واستمعت لى بصـــبر حتى النهاية ، ولكنها لم تقل شيئا ٠

وسألتها :

– حسن ، أليست مسز ريد امرأة قاسية القلب ؟

– لقد كانت ظالمة لك ، بلا شك ، لكن ألن تكوني أسعد حالا اذا حاولت أن تنسى قسوتها ؟ تبدو الحياة بالنسبة لي قصيرة جدا لنقضيها في تذكر ظلم الماضي !

ورأيت من نظرتها أنها لا ترغب في الاسترسال في الحديث ، انما تفضل أن أتركها لأفكارها · ومع ذلك لم يدم هذا طويلا ، اذ جاءت بنت طويلة فظة وصرخت قائلة :

– هيلين بيرنز اذا لم تذهبي وترتبي درجك في الحال سأخبر مس سكاتشيرد لتأتي وتراه !

فقامت هيلين وأطاعت بدون تأخير ·

الفصل الثامن

زيارة مستر بروكلهيرست

وفى أحد الأيام عندما مضى على حـــوالى ثلاثة أسابيع فى لوود وكنت منكبة على حل بعض مســائل الحساب ، نهضت كل المدرسة فجاة بما فيها المدرسات ٠٠ ورأيت بجانب مس تمبل نفس العامود الاســود الذى نظر الى بصرامة شـــديدة فى غـــرفة الافطار بجيتسهيد ٠

وطوال هذا الوقت ، وكنت أخشى قدوم مستر بروكلهيرست وتنفيذ وعده لمسز ريد ٠٠ كان يتحدث الآن بصوت منخفض مع رئيسة المدرسات ٠

ـ أود الاعتناء بالجوارب الصوفية بشكل أفضل عندما كنت هنا آخر مرة ، تفحصت الملابس المنشورة للتجفيف · كانت بالجوارب ثقوب كبيرة وكثيرة ·

فقالت مس تمبل :

ـ سنهتم بتعليماتك يا سيدى !

فاضاف قائلا :

ـ وأجد أن بعض الفتيات لديهن ياقتان نظيفتان فى الأسبوع · هذا كثير · النظام يحدد لهن ياقة واحدة فقط ·

ـ أعتقد أنى أستطيع توضيح كيف حدث ذلك، يا سيدى · لقد دعيت طالبتان للذهاب الى تنـــاول الشاى مع بعض الأصدقاء يوم الخميس الماضى ، ولقد أعطيت لهمـــا الاذن بارتداء ياقة نظيفـــة تليـــق بالمناسبة ·

فاوما مستر بروكلهيرست قائلا :

ـ حسن ، مرة ، قد يسمح بها ، لكن من فضلك

لا تدعى ذلك يحدث دائما ·· وهناك شيء آخر أدهشني · اكتشفت ، عند مراجعة الحسابات مع مدبرة المنزل ، أن وجبة خبز وجبن قد قدمت للبنات خلال الشهر الماضى · كيف كان ذلك ؟ فنظم المدرسة لا تنص على مثل هذه الوجبة · من عدل فيها ؟ ومن أعطى الأوامر ؟

فاجابت مس تمبل :

ـ يجب أن أكون المسئولة عن ذلك الحدث ، يا سيدى · فالافطار كان سيئا للغاية لدرجة أن الطالبات لم تستطعن أكله · ولم أجرؤ أن اسمح لهن ان يبقين بدون طعام حتى موعد الغداء ·

ـ مدام (*) ، تعرفين أن خطتى فى تربية هؤلاء الطالبات هى ألا يعتدن عادات الحياة الرغدة · اذا حدث تلف لوجبة من الوجبات عن دون قصد ، فيجب تشجيعهن على تحمل الجوع بدون شكوى !

(*) طريقة رسمية لمخاطبة المرأة المقصود احترامها ·

فنظرت مس تمبل أمامها مباشرة ، ولم يظهـــر على وجهها أى من احاسيسها • وفى هذه الاثناء وقـف مستر بروكلهيرست ويداه وراء ظهره ، وترك عينيه تطوفان بالمدرسة كلها • وفجأة أغلقهما للحظـــة وكانهما قابلتا شيئا قد صدمهما ، فالتفت وتحـدث بسرعة اكثر عما قبل :

ــ مس تمبل ، مس تمبـل ، هل لهذه البنت شعر ملفوف ؟ شعر أحمر ملفوف كله يا مدام !

وأشار بعصاه ، وارتعشت يده وهو يفعل ذلك، فاجابت مس تمبل بهدوء :

ــ شعر جوليا ملفوف بطبيعته •

ــ لقد أعلنت مرات ومرات بأنى أرغب فى أن يتم ترتيب شعر البنات بشكل مفرود ، متواضـــع وبسيط •• مس تمبل يجب قص شعر هذه الفتاة • وأرى أخرى شعرها كثيف • اخبرى كل الفصل الاول أن يوجهن وجوههن الى الحائط •

فضغطت مس تمبل منديلها على شفتيها ، وكأنها

تخفى ابتسامة . فاستندت للخلف قليلا على مقعدى لأرى النظرات الساخطة على وجوه البنات . وتفحص مستر بروكلهيرست رؤوسهن لخمس دقائق ثم أعطى أمره :

– يجب قص شعورهن جميعا !

كان يبدو على مس تمبل انها ستعترض ، ولكنها توقفت عند وصول ثلاث زائرات ، سيدات يلبسن ملابس حريرية مكللة بالفراء .. كان يجب أن يبكرن قليلا حتى يسمعن ملاحظات الجنتلمان ، فشعورهن كانت مرتبة فى كتل ملفوفة بعناية . وعلمت بعد ذلك أنهن زوجة مستر بروكلهيرست وابنتاه ، ولقد فحصن غرف النوم وذكرن عيوبا كثيرة .

وأثناء مراقبتى للمنظر الذى أمامى بشغف زائد ، لم أهمل التفكير فى سلامتى الشخصية ، لذلك جلست مستندة جيدا على مقعدى وأمسكت بكتابى بطريقة أخفى بها وجهى وكدت أنجح فى عدم لفت انتباه أحد الى ، لولا انزلاق كتابى من يدى محدثا صوتا عاليا ..

وفى الحال التفتت كل العيون نحوى · فقال مستر بروكلهرست :

– بنت مهملة ! انها التلميذة الجديدة ، يجب الآ أنسى بأن لى كلمة أقولها عنها ، دعوها تحضر الى هنا ·

لم أستطع التحرك بنفسى لولا أن بنتين أكبر منى أوقفتانى على قدمى ودفعتانى نحو الحكم الرهيب ·

– احضرن هذا الكرسى ، وضعن البنت فوقه ·

كان كرسيا عاليا جدا ، فاصبحت الآن فى مستوى وجه مستر بروكلهرست ، وقال :

– سيداتى ، مس تمبل ، ايتها المدرسات والطالبات ، كلكن ترون هذه البنت ؟ أنها صغيرة جدا · من يعتقد أنها كانت خادمة للشيطان من قبل ؟ يجب أن تبتعدن عنها · تجنبن مصاحبتها ولا تلعبن معها أو تتحدثن اليها · ويجب أن تراقبنها يا مدرسات وتحصين كلماتها وأعمالها جيدا · هذه البنت ، هذه الطفلة كاذبة !

وتلا ذلك فترة صمت ، وأثناءها هـــزت أفراد عائلة بروكلهيرســت رءوســهن وقلن « ياللعـــار » واستمر مستر بروكلهيرست قائلا :

ـ علمت ذلك من ولية أمرها ، السيدة الكريمـة التى تبنتها وتولت تربيتها كابنة لها ، حتى أصبحت ناكرة للجميل فاجبرت السيدة الفاضلة أن تفصـــل بينها وبين أولادها ، خوفا عليهن من سلوكها السيىء .

وتحرك نحو الباب مع عائلته ، **والتفت فى آخر لحظة ، قائلا :**

ـ دعوها تقف لمدة نصف ساعة على الكرسى ولا تدعن أحدا يتحدث اليها بقية اليوم !

وهكذا كنت أنا القائلة باننى لا أستطيع تحمل عار الوقوف في وسط الحجرة ٠٠ أقف الآن موصومة بالعار علنا ٠٠ لا توجد كلمات تصف أحاسيسى ٠ ولكن الدموع بدأت تخرج عن سيطرتى ، ومرت هيلين أمامى ، ورفعت عينيها وابتسمت ٠

وبطريقة ما غريبة شحنتنى بشـــجاعتها .
فجففت دموعى ورفعت رأسى واتخذت وقفة ثابتـــه
على الكرسى .. !

الفصل التاسع

مس تمبل

وقبل انتهاء النصف ساعة رن الجرس معلنا انتهاء الدراسة وذهب الجميع الى حجرة الطعام لتناول الشاى . فتجاسرت الآن على النزول وانسللت الى الركن . وبدأت الشجاعة التى ساندتنى تذبل وشعرت بانى بائسة تماما لدرجة أننى غصت على الارض بوجهى ، وبكيت ..

لقد نويت أن أكون صالحة ومجتهدة تماما فى لوود ، واعقد صداقات كثيرة ، وانال الاحترام والحب. ولقد انجزت تقدما فى الفصل وحصلت على الثناء من

مدرساتي ونلت محبة زميلاتي وعاملتني من منهن في سني كند لهن . لكن الآن ، ولت آمالي كلها ولا أرغب الا في الموت ..

وأحسست باقتراب شخص ما .. وكانت هيلين بيرنز . لقد احضرت قهوتي وخبزى وقالت :

– هيا ، كلي شيئا !

ولكني ابعدت كليهما عني ، وأجهشت في البكاء .. وقلت لها :

– هيلين ، لماذا تبقين مع بنت يعتقد كل شخص أنها كاذبة ويحتقرها كل انسان ؟

– جين ، أنت مخطئة . لا أحد في المدرسة يكرهك أو يحتقرك . كثيرات يشفقن عليك .. أنا متأكدة من ذلك .

– كيف يشفقن على بعد ما قاله مستر بروكلهيرست ؟

– ان مستر بروكلهيرست ليس الها ، ولا هو

حتى رجل عظيم مقبول ·· انه غير محبوب هنا · اذا كان قد عاملك بمحاباة خاصة لوجدت لك أعــداء · ومعظم البنات سيعطفون عليك فى الخفاء ··.

وربما تنظر لك المدرســات والتلميذات ببرود ليوم أو اثنين ، ولكن هناك شعورا بالصـــداقة فى قلوبهن · بالاضافة يا جين ···

ثم توقفت عن الكلام ، فسألتها :

ـ ماذا يا هيلين ؟

ـ اذا كرهك العالم كله واعتقد انك شريرة ، بينمــا ضـــميرك راض عنك ، يمكنك أن ترفعى رأسك ·

وسكت عن البكاء · لقد هدأتنى هيلين · وأرحت رأسى على كتفها ، ووضعت ذراعى حول خصرها · ولم نجلس طويلا هكذا ، اذ جاءت مس تمبل ، وقالت :

ـ لقــد جئت بغرض أن أجــدك يا جين اير · أريدك فى غرفتى ، وطالما هيلين بيرنز معك ، فلتأت أيضــا ·

وتبعناها الى حجرة جلوسها حيث نادتنى الى جانبها . وسألتنى ناظرة الى أسفل نحو وجهى :

ـ هل انتهى كل شىء ، هل بكيت بما فيه الكفاية .. ؟ !

ـ لن أفعل ذلك مطلقا .

ـ لماذا ؟

ـ لأننى اتهمت بشكل خاطىء وأنت يا مدام وكل واحدة أيضا ستعتقد باننى شريرة .

ـ سنعتقد ما سوف تبرهنينه عن نفسك يا طفلتى . استمرى فى سلوكك كبنت طيبة وسوف ترضينا جميعا ..

ـ حقا يا مس تمبل ؟

ـ أجل سترضينا . والآن يا جين ، تعرفين عند اتهام المجرم عادة ما يسمح له بالحديث المدفاع عن نفسه . لقد تم اتهامك بالكذب ، دافعى عن نفسك لى قدر ما تستطيعين . قولى ما تقترحه ذاكرتك من حقائق ، لكن لا تضيفى شيئا من عندك !

وهكذا بعدما شجعتني ، فكرت قليلا لأرتب تسلسل قصتي ثم أخبرتها بتاريخ طفولتي . وشعرت أثناء سردي انها تصدقني تماما .

وفي مجرى القصة ، ذكرت أن مستر لويد قد جاء ليراني أثناء مرضي . وعندما انتهيت ، نظرت الى مس تمبل لمدة دقائق في صمت ، ثم قالت :

ـ انني أعرف مستر لويد . سأكتب له . واذا كانت اجابته مرضية ستبرئين بشكل علني من الاتهامات التي وجهت اليك . أما بالنسبة لي فانت بريئة تماما الآن .

وقبلتني وظلت محتفظة بي بجانبها ، حيث كنت قانعة جدا بوقوفي ثم اتجهت لمخاطبة هيلين بيرنز :

ـ كيف حالك اليوم يا هيلين ؟ هل سعلت كثيرا ؟

ـ ليس كثيرا تماما يا مدام ، شكرا لك ..

ـ والألم الذي في صدرك ؟

ـ أفضل قليلا .

وسرحت مس تمبــل بتفكيرها قليلا ، ثم دقت الجرس وطلبت شايا ٠٠ ودعتنى وهيلين للجلوس على المائدة ونشرب ، وفتحت خزانة وأخرجت منها كعكة كبيرة ٠ ونظـرت الينا بابتســامة أثنــاء استمتاعنــا بالطعام ، انها مناسبة نادرة بالنسبة لنا ٠

وبعد الشاى دعتنا ثانية الى المدفأة ٠ فجلسنا على جانبيها ٠ وأنصت باحترام واعجاب للمحادثة بينها وبين هيلين ٠ ويبــدو أن الوجبــة والنار الســاطعة وحضور المدرسة المحبوبة حرك شــعور هيلين وكسر صمتها ٠ فكانت ملامحها الدقيقة تبدو مليئة بالحياة ، وكانت عيناها الذكيتان تومضان أثناء تحدثها مع مس تمبل عن أشياء لم أسمع عنها مطلقا ٠٠ عن أمم وأزمان فى الماضى وعن بلدان بعيدة وعن كتب وكتاب ٠٠٠ يا لها من خزائن للمعرفة التى يملكانها ! كم من الكتب قد قرآها ! ٠

وسرعان ما رن جرس وقت النوم ٠ ولا يمكن السماح بأى تأخير ٠ فقبلتنا مس تمبل وقالت :

ـ بارك الله فيكما يا بناتي !

وبعد هذه الحادثة بحوالى أسبوع ، نادت مس تمبل المدرسة مجتمعة ، وأعلنت بأن استفسارا قد جرى فى الاتهامات الموجهة ضد جين اير ، وأقرت بأنها كانت سعيدة جدا لامكانها أن تؤكد طهارتها التامة . فسلمت عندئذ المدرسات على باليد ، وسرت عبر صفوف رفيقاتى وأنا أشعر بسعادة غامرة ..

وهكذا ارتحت من حمل ثقيل ، ومن تلك الساعة بدأت العمل مرة أخرى . فذاكرت باجتهاد ، وكللت بالنجاح . وتحسنت ذاكرتى ، وفى خلال أسابيع قليلة انتقلت الى فصل أعلى . وفى أقل من شهرين سمحوا لى أن أبدأ اللغة الفرنسية والرسم . وتحرك الآن طموحى ، ورغم صعاب حياتى ، فلن أغير لوود من أجل جميع رفاهيات جيتسهيد ..

الفصل العاشر

وفاة هيلين

ومع اقتراب الربيع ، قلت متاعب لوود · فلم تعد الأمسيات باردة بشكل قارس ، وذابت الثلوج وأصبحت الرياح الحادة أكثر اعتدالا · وأصبح يمكننا حاليا التمتع بساعة اللعب التى تقضيها فى الحديقة · وأيام الخميس بعد الظهر (نصف عطلة) كنا نذهب لنتنزه ، وعلمت لأول مرة الاستمتاع بالمناظر الطبيعية الجميلة ، فى التلال الملاصقة لوادينا المليء بالغابات· والأشجار ، والزهور ، وجداول الماء المندفعة كلها تبهجنى ·

ولكن بالرغم من أن المنطقة المجاورة كانت ممتعة الا أنها غير صحية • فقبل حلول شهر مايو هاجمت الحمى حجرة الدراسة المزدحمة وحولت الملجـأ الى مستشفى •

وكانت ضآلة كمية الطعام مع نزلات البرد المهملة قد جعلت معظم التلميذات يصبن بالمرض بسهولة •• ورقدت خمس وأربعون من ثمانين بنتا مريضات فى وقت واحد •

تفرقت الفصول وأصبحت النظم والقواعد نسيا منسيا •• وسمح للقلة التى بقيت بصحة جيدة بحـرية لا حد لها تقريبا ، لأن الطبيب أصر على ضرورة التمارين المتكررة للحفاظ عليهن أصحاء • أما المرضى فلقـد استوعبن انتباه مس تمبل كله •

وكانت المدرسات مشغولات تماما فى مسـاعدة البنات ، اللاتى كن محظوظات لوجود أصدقاء أو أقارب على استعداد لانتشالهن من الخطر ، فى لم أمتعتهـن وترحيلهن • وكثيرات تركن فقط ليمتن •

ولكنى أنا والباقيات اللاتى ظللن فى صحـــة جيدة أخذنا نفعل ما نشاء ، فنذهب أينما يحلو لنا ٠ ولم يأت مستر بروكلهيرست ولا عائلته بالقرب مـن لوود حاليا ٠ وعشنا لأيام كاملة خارج الجدران ٠

وأين كانت هيلين بيرنز فى هذه الأثنـــاء ؟ ٠٠ كانت مريضة ٠٠ لقد انتقلت لعدة اسابيع بعيدا عـن مرآى فى غرفة بالطابق العلوى ٠ ولم تكن ، كمـــا قيل لى ، فى نفس الجزء من المنزل الذى فيـه مرضى الحمى ، حيث أن مرضـــها كان مرضـــا رئويا ، وهو المرض الذى اعتقدت خطأ أنه شيء سهل يمكن علاجه بشكل أكيد مع الوقت ومداومة العلاج ٠

وأكد هذه الفكرة انها نزلت مرة أو مرتين فى أوقات الظهيرة المشمسة الدافئة ، وكانت تأخذها مس تمبل الى الحديقة ، ولكن لم يكن مسموحا لى لاذهـب وأتحدث معها ٠

وفى احدى الأمسيات ظهر الطبيب فى ســاعة غير عادية ، اشارة بأن احداهن مريضة جدا ٠ كنـت

بالقرب من الباب الأمامى عندما غادر ، وركضت الى الممرضة التى كانت تتكلم معه ·

ـ كيف حال هيلين بيرنز ؟

فكانت الاجابة :

ـ ضعيفة جدا ·

ـ ماذا قال الطبيب عنها ؟

ـ قال انها لن تكون هنا طويلا ·

فى الأوقات العادية كنت سأفهم من هذه الجملة أن معناها مجرد أن هيلين ستذهب الى بيتها ·· ولم اشك فى أنها تعنى أنها ستموت ، لكنى أدركت ذلك فورا الآن ، فانتابتنى صدمة ذعر ، ثم احساس قوى بالأسى ، ثم رغبة وحاجة لرؤيتها · وســـألت فى أى غرفة ترقد · فقالت الممرضة :

ـ انها فى غرفة مس تمبل ·

ـ هل لى أن أذهب وأتحدث اليها ؟

ـ لا يا فتاتى ·

كانت الساعة التاسعة ، ومس ميللر تنـادى التلميذات للذهاب للنوم · وذهبت مع الأخريات ·

وبعد ساعتين ، نهضت بلطف وتسللت بدون حذاء فى البحث عن غرفة مس تمبل · كانت فى الجانب الآخر من المنزل ، ولكنى أعـــرف طريقى · مررت بسرعة على غرفة الحمى ، خشية أن تسمعنى الممرضة التى تجلس متيقظة طوال الليل ·

وبجوار سرير مس تمبل كان هناك سرير آخر أصغر · رأيت شكل جسم تحت ملاءة السرير · وكانت الممرضة التى تحدثت اليها فى الحديقة تجلس عـلى كرسى وهى نائمة · ولم أر مس تمبل · وعلمت فيما بعد أنها ذهبت بجوار سرير مريضـة أخـــرى · واقتربت ، وهمست برقة :

ـ هيلين ! هل أنت مستيقظة ؟

فتحركت قليلا ، ورأيت وجهها الهادىء الباهت ، وسألت بصوتها اللطيف المعهود :

ـ أهذه أنت يا جين ؟

فقلت في نفسي :

ـ أوه ! أنها لن تموت ٠ انهم مخطئون ٠ والا ما كانت تستطيع أن تتكلم وتنظر بكل هذا الهدوء ٠

ـ لماذا أتيت الى هنا ، يا جين ؟ انها بعد الساعة الحادية عشرة ٠ لقد سمعت الساعة تدق منذ دقائق ٠

ـ أتيت لأراك يا هيلين ٠ سمعت انك مريضـة جدا ، ولم أستطع النوم حتى أتحدث معك ٠

ـ جئت لتقولي لي وداعا اذن ٠ لقد اخترت الوقت المناسب على ما أعتقد ٠

ـ هل ستذهبين الى مكان ما يا هيلين ؟

ـ أجل ، الى مثواي الأخير ٠

ـ لا ، لا يا هيلين !

وتوقفت في يأس ٠ وبينما حاولت ايقـــاف دموعي بدأت هيلين تسعل ٠

وبعد فترة صمت طويلة همست قائلة :

ـ انني سعيدة جدا ، يا جين ، وعندما تسمعينهم

يقولون أننى مت فلا يجب أن تحزنى · يجب أن نموت جميعا يوما ما ، والمرض الذى ينقلنى لطيف وتدريجى وعقلى فى راحة · ولا أترك أى أحـــد ليأســف على كثيرا · لدى أب فقط ، ولقد تزوج مرة أخرى حديثا، فلن يفتقدنى · انى ذاهبة الى الله ·

ثم اضافت بعد هنيهة :

ــ كم أنا مرتاحة ! نوبة الســعال الأخيرة قد أتعبتنى قليلا · أحس كأنى أستطيع النوم··لاتتركينى يا جين · أحب أن تكونى قريبة منى !

ــ سأبقى معك يا هيلين العزيزة · لن يبعدنى عنك أحد ·

ورقدت بجانبها · وقبلتنى ونمنا فى الحال · وعندما استيقظت ، كان ضوء النهار قد ســـطع ·· وكانت هيلين ·· قد ماتت !

الفصل الحادى عشر

اعلان عن وظيفة

اختفت الحمى بالتـدريج من لوود ، لكن ليس قبل أن يلفت عنفها وعدد المعذبات انتبـــاه الجمهــور للمدرسة وما حدث فيها ٠٠ وأجرى استفسار عن سبب ظهور المرض ، وأصبحت حقائق مختلفة معروفة حركت غضب الجمهور بأعلى درجاته : وضع المبنى غير الصحى، نوع وكمية طعام البنات ، توصيلة المياه غير النقية ، ملابس الطالبات البائسة ، ومكان المعيشة المزدحم ٠٠ كل هذه الأشياء تم اكتشافها ومعرفتهـا وجلبت العار على مستر بروكلهيرست ، ولكنهـــا جلبت تحسينات للمدرسة أيضا ٠

وشارك عديد من الأثرياء بالمنطقة لبنـــاء ملجأ أفضل في مكان أصح . ووضعت نظم جديدة ، وقدمت تحسينات في الطعام والملابس ووضعت ادارة المدرسة في أيدى لجنة من الخبراء .. وبقى مستر بروكلهيرست مسئولا عن نفقات المدرسة ، ولكن وضعت نشـــاطاته تحت المراقبة من قبل رجال أفاضل ذوى عقول أكثر كرما وعطاء . وهكذا تحسنت المدرسة ؛ وأصبحت مع الوقت مكانا مفيدا حقا .

ظللت بها لمدة ثماني سنوات . وكانت حياتي أثنـاء ذلك الوقت بدون تغيير ، ولكنني لم أكن غير سعيدة ، لأنني لم أكن خاملة . وأتيحت لي فرصة تعليم ممتازة . وانشغلت غراما ببعض من دراساتي ، وازدادت رغبتي في أن أبذل أفضل ما عندي في تلك الدراسات . وكنت أجد متعة عظيمة في ارضاء مدرساتي .. وحثني كل ذلك على الاســـتمرار في التفوق .. ومع الوقت أصبحت البنت الأولى في الفصـــل الأول ، ثم أصبحت مدرسة لمدة سنتين .

واستمرت مس تمبـل حتى الآن كمسئولة عن لورد · ولتدريسها أدين لأفضـــل جزء من تعليمى · وكانت صداقتها وصحبتها راحـــة لى ·· لقد كانت بالنسبة لى فى مكانة الأم والمدرسة والصديقة · ولكنها فى هذه الفترة تزوجت ، وغادرت مع زوجها الى منطقة بعيدة من البلاد ·

ومنذ ذلك اليـــوم ، لم أعـد نفس الشخص · وعالمى أصبح لعدة سنين عالم لورد الضيق والذى يبدو خاويا الآن · وأتذكر أن العالم الحقيقى كان أرحب ، ويتيح شتى أنواع الخبرات لهؤلاء الذين لديهم الشجاعة للخروج اليه · ولقد قضيت جميع عطلاتى فى لورد ·· ولم تكتب لى مسز ريد ولا عائلتها ولم يأتوا لزيارتى أبدا · وكانت نظم المدرســـة ، وواجبات المدرسـة ، وعادات المدرسة ــ هى كل ما أعرف · وهيمنت على رغبة جامحة مفاجئة للحرية ·· !!

وسألت نفسى :

ــ ماذا أريد ؟ مكان جديد ، منزل جديد ، وبين

وجوه جديدة وفى ظروف جديدة ٠٠ هذا هو أفضل ما أستطيع أن أتطلع اليه ٠٠ ولكن كيف يحصل الناس على مكان جديد ؟ ٠٠ انهم يقدمون طلبهم لأصـــدقاء ، على ما أعتقد ٠٠ وليس لى أصـــدقاء ٠٠ فماذا يفعل الناس فى مثل هذه الحالة ؟!

لم أستطع الرد على ذلك ٠٠ ولكن بعد نوم ليلة جاءت الفكرة بهدوء وبشكل طبيعى الى عقلى ٠٠ يجب أن أعلن عن ذلك !

استيقظت مبكرا جدا ٠٠ وانتهيت من كتابة اعلانى قبل أن يرن جرس الاســـتيقاظ بالمدرســة ٠ وكان كالآتى :

فتاة اعتادت على التدريس ترغب فى الحصول على وظيفة عند عائلة خاصة ، أطفالها تحت سن الرابعة عشرة ٠ انهـا مؤهلة لتدريس المواد العادية بالتعليـم الانجليزى ، مع اللغة الفرنسية والرسم والموسيقى ٠ العنوان ٠ ج ٠ أ ٠ مكتب بريد ٠ لووتون ٠

وبعد الشأى ، طلبت اذنا من رئيسة المدرسات الجديدة للذهاب الى مدينة لووتون المجاورة ٠ وذهبت

حيث زرت محلا أو اثنين ، وأرسلت خطابى الى الصحف فى صندوق مكتب البريد ، وعدت بقلب مرتاح ·

وبدا الاسبوع التالى طويلا ولكنه فى النهاية انتهى ، وذهبت مرة أخرى الى المدينة الصغيرة · وكانت المسئولة عن مكتب البريد سيدة عجوز بنظارة ، فسألتها :

ــ هل من رسائل لأجل ج ٠ ١ ٠٠ ؟!

فحملقت فى من فوق نظارتها ، ثم فتحت درجا · وأخذت تراجع الأوراق التى فيه لمدة طويلة حتى بدأت أياس · وأخيرا أمسكت برسالة لمدة خمس دقائق تقريبا أمام نظارتها ثم أعطتها لى بنظرة فضول وعدم ثقة · فسألتها ·

ــ الا يوجد الا واحدة ؟

فأجابت :

ــ لايوجد غيرها ·

فوضعتها فى جيبى وأسرعت عائدة · كانت الواجبات تنتظرنى بالمدرسة · كان على أن أجلس مع

البنات أثناء ساعة دراستهن ، ثم كان دورى فى ترتيل الصلاة ، ثم الاشراف على النوم بالمدرسة . وجاء الليل قبل أن أكون حرة لافتح الرسالة ، التى كانت مختصرة كالآتى :

اذا كانت ج ٠ ١ ٠ التى اعلنت يوم الخميس الماضى حاصلة على المؤهلات المذكورة ، واذا كانت قادرة على تقديم البيانات مرضية عن الشخصية والمقدرة الطبية . يمكن تقـديم وظيفة لهـا ، حيث توجد تلميذة واحدة فقط ، بنت صغيرة عمرها اقل من عشر ســـنوات . المرتب ثلاثين جنيها فى السنة . مطلوب من ج ٠ ١ ٠ أن ترسل باجابتهــا الى مسز فيرفاكس ، ثورنفيلد ، قرب ميلكوت .

فحصت الرسالة مدة طويلة . كانت الرســالة مكتوبة بطريقة الخط القديمة وبطريقة مترددة نوعا ما ، وكان كاتبتها امراة عجـوز . كانت مرضية والوظيفة تبدو محترمة . والمرتب المذكور كان ضعف ما أكسبه .

وفى اليوم التالى أفصحت عن نيتى الى رئيســة المدرسات الجديدة ، وطلبت منها أن تذكـر الموضوع

للجنة أو لمستر بروكلهيرست وترى اذا كانوا سيؤيدون طلبى ٠

واعلن مستر بروكلهيرست بأنه يجب الكتابة لمس ريد حيث أنها ولية أمرى الطبيعية ٠

وارسلوا بالتالى رســالة الى هذه السيدة التى ردت قائلة باننى يمكننى أن أفعل ما يحلو لى ، لأنها تخلت ، منذ مدة طويلة ، عن أى شىء يخصنى ٠ وذهب هذا الرد الى اللجنة ، وفى النهاية أعطونى اذنا رسميا للوظيفة الجديدة ، مع خطاب توصية موقع من قبل أعضاء اللجنة ٠

وارسلت نســخة من هذا الخطـاب الى مسز فيرفاكس ، ثم حصلت على اجابة السيدة ، تعلن فيها رضاها وتحدد الموعد الذى يجب أن أبدأ فيه واجباتى كمربية للاطفال فى منزلها ٠

الفصل الثانى عشر

فى ثور نفيلد

كنت وحيدة تماما فى العالم .. احساس جديد غريب لفتاة قليلة الخبرة .. لقد تركت لووتون الساعة الرابعة صباحا ، والآن والساعة الثامنة من مساء نفس اليوم حيث نزلت فى فندق جورج فى ميلكوت : وهى بلدة صناعية كبيرة ، منتظرة من ياتى لمقابلتى لياخذنى الى ثورنفيلد ..

ولقد تحول أول احساس بالمغامرة الى احساس بالخوف وبجميع أنواع الشكوك التى أزعجتنى ..

وبعد نصف ساعة قرعت الجرس ، وسـألت الخادم الذى جاءنى :

ـ هل يوجد مكان قريب من هنا اسمه ثورنفيلد ؟

فاجابني :

ـ ثورنفيلد ؟ لا أدرى يا مدام . سأستفسر ..

وذهب ، ولكنه ظهر مرة اخرى بعد قليل وقال :

ـ هل اسمك جين اير ، يا آنستى ؟!

ـ أجل .

ـ يوجد شخص فى انتظارك .

عند مدخل الفندق كان يقف أحد الرجال .. ورأيت بشكل باهت على ضوء مصباح الشارع ، عربة بحصان واحد . ففكرت :

ـ أظن بالحكم على بساطة الخادم والعربة أن مسز فيرفاكس ليست من أهل الموضة الحديثة .. على كل فهذا افضل بالنسبة لى .. لقد عشت مرة فقط بين اناس أنيقين وكنت بائسة جدا معهم . ترى هل تعيش بمفردها مع هذه الفتاة الصغيرة . ادعو الله الا تكون مثل مسز ريد ، لكن اذا كانت كذلك فانا غير

مجبرة على البقاء معها ، فاذا لم أوفق معها ، يمكنني الاعلان ثانية عن وظيفة أخرى ٠

كانت الطرق شاقة والليل كان مليئا بالضباب٠ وترك السائق الحصان يسير الهوينى طول الطريق ٠ ومرت ساعتان قبل أن يترجل ويفتح البوابة التى مررنا عبرها وسرنا ببطء صاعدين طريقا محفوفا بالأشجار حتى أتينا الى واجهة البيت ففتحت الخادمة الباب وقالت :

ـ هل تسمحى أن تاتى من هنا ، يا مدام ؟

فتبعتها عبر صالة مربعة ، وقادتني الى غرفة ذات منظر جميل ٠ كانت غرفة مريحة صغيرة ٠ وكانت هناك منضدة مستديرة بجانب مدفأة مبهجة ، وكرسى ذو مساند وظهر مرتفع من طراز قديم جلست عليه سيدة عجوز ضئيلة ونظيفة جدا ، ترتدى غطاء رأس مثل الأرامل ،ورداء حريريا أسود بمريلة بيضاء كالثلج مربوطة حول وسطها ٠٠ وكانت مشغولة بالحياكة ، وتجلس قطة سوداء كبيرة عند قدميها ٠ وكان اللقاء

مشجعا لمربية أطفال جديدة ، لا أتصـــور أكثر منه ٠ فعندما دخلت قامت الســـيدة العجوز وجاءت نحوى للقائى ٠

ــ كيف حـالك يا عزيزتى ؟ أخشى ان تـكونى تعبت من الرحلة الطويلة ، وجون يقود ببطء شديد ٠ لابد أنك تشعرين بالبرد ٠ تعالى الى المدفأة ٠٠

ــ مسز فيرفاكس ، على ما أعتقد ؟

ــ أجل ، تفضلى بالجلوس ٠٠

وقـادتنى الى كرســيها وبدأت تخـلع معطفى ٠ فرجوتها ألا تزعج نفسها ٠ ثم طلبت لى مشروبا ساخنا وطعاما ، وخرجت لترى أمتعتى وتتأكد من وصولها الى غرفتى ٠

واخذت افكر :

ــ انها تعاملنى كزائرة ٠ هذا ليس كما سمعت عن معاملة مربيات الأطفال ٠٠

وشـعرت بالارتباك لأنى أصـبحت هدفا للانتباه أكثر مما كنت عليه من قبل فى حياتى كلها ٠

وسألتها :

ـ هـل سـأستمتع برؤية الآنسـة فيرفـاكس الليلة ؟

ـ الآنسة فيرفاكس ؟ ٠٠ آه تقصدين الآنسة أديل فارينز ! ٠٠ فارينز هو اسم تلميذتك الجديدة ٠

ـ حقا ! اذن هي ليست ابنتك ؟

ـ كلا ٠٠ ليس لدى أسرة ٠ اننى مسرورة جدا أنك جئت ٠

ثم اردفت قائلة :

ـ ستكون المعيشة هنا ممتعة مع رفيقة مثلك ٠ فالانسان يشعر في الشتاء بالوحدة الكئيبة مع الخدم فقط ٠ ولكنى لن أتسـبب في ابقائك لساعة متأخرة الليلة ٠ ان الساعة حوالى الثانية عشرة ، ولقد كنت على سفر طوال اليوم ٠

وأخذت شمعتها ٠ وبعد أن تأكدت من أن الباب الأمامى محكم الاغلاق قادتنى الى الطابق العلوى ٠ وملأ

الهواء البـارد السلم المعتم والممر الطويل . وكنت مسرورة بأن أجد غرفتى صـغيرة ومؤثثة بطريقة عادية حديثة ..

الفصل الثالث عشر

ضحك غريب

بدت غرفتى فى الصباح التالى ساطعة وزاهية فى ضوء الشمس ، مع ألوان ورق الحائط وسجاد الأرضية ٠٠ انها ليست مثل الخشب العارى والجص الملون فى لوود وهو الذى فرحت به عند رؤيتى له مرة ٠٠ ربما ستبدأ فترة أسعد من حياتى

ونهضت وارتديت ملابسى بعناية وكانت ملابسى وملامحى بسيطة ، ولكنى كنت نظيفة بالطبيعة وكان فستانى الأسود يناسبنى تماما ٠

وعند نزولى الى الطابق الأسفل وجدت باب الصالة

مفتوحا فخطوت خارجة ۰ كان صباح خريف جميل ، وتقدمت فوق الأرض المغطاة بالأعشاب ورفعت بصري۰ وفحصت واجهة المنزل ۰۰ أنه مكون من ثلاثة طوابق من الحجم الكبير ۰

وأخذت أتمتع بالهواء النقي الصحي عندما ظهرت مسز فيرفاكس عند الباب ، وقالت :

ـ هكذا ! أسرعت في الخروج ؟ أرى أنك ممن يستيقظون مبكرا ۰ هل أعجبتك ثورنفيلد ؟

فاخبرتها انني اعجبت بها جدا ، فقالت :

ـ أجـل ، انها جمـيلة حقـا ، لكن أخشى أنها ستخرج عن ترتيبها ونظامهـا ، الا اذا قرر مسـتر روتشستر أن يأتي ويعيش هنا بصفة دائمة ۰

فسالتها :

ـ مستر روتشستر ! من هو ؟

فاجابت بهدوء :

ـ صاحب ثورنفيلد ۰

ـ لكنى اعتقدت أن ثورنفيلد ملكك ٠

ـ ملكى ؟ آوه ، كلا يا ابنتى ، يالها من فكرة ! اننى مجرد مدبرة المنزل ٠

ـ والبنت الصغيرة ـ تلميذتى ؟

ـ مستر روتشستر هو الوصى عليها ، وولى أمرها ، ولطلب منى أن أبحث لها عن مربية ٠٠ هاهى قادمة مع وصيفتها ٠

واتضح عندئذ الغموض ٠ فهذه الأرملة الطيبة صغيرة الحجم ليست سيدة البيت ، والتماثل بينها وبينى شىء حقيقى ؛ فأحسست بسرور أكثر ٠

وأثناء انشغالى بالتفكير فى هذه المعلومة جاءت بنت صغيرة تركض ٠٠ ربماكانت فى السابعة أو الثامنة من عمرها ، ذات وجه شاحب وملامح صغيرة ، وشعرها مجدول فى ضفائر تصل الى خاصرتها ٠٠

فقالت لها مسز فيرفاكس :

ـ صباح الخير ، آنسة آديل ٠ تعالى تحدثى مع السيدة التى ستدرس لك ٠٠ !

فاقتربت وقالت باللغة الفرنسية مشيرة الى ومخاطبة وصيفتها :

ـ هل هي مربيتي ؟

فاجابتها الوصيفة بنفس اللغة :

ـ اجل ، بالتأكيد ٠

فسألت :

ـ هل هما أجنبيتان ؟

ـ الوصيفة اجنبية ، وأديل ولدت في باريس ، واعتقد انها لم تغادرها الا منذ ستة شهور ٠ وعندما جاءت الى هنا لم تستطع أن تتكلم باللغة الانجليزية ، لكنها الآن تستطيع التحدث بها قليلا ٠

من حسن الحظ أني كنت أتميز بميزة أصبحت الآن نافعة ، وهي أني تعلمت اللغة الفرنسية على يد سيدة فرنسية ، وتمرنت على المحادثة معها دائما ٠ فخاطبت تلميذتي في الحال بلغتها ، وعلى مائدة الافطار بدأت تتحدث معي بسعادة ٠

وبعد الطعام ، ذهبت مع أديل الى المكتبة التى أمر مستر روتشستر أن تستخدم كحجرة دراسة . ووجدت تلميذتى مطيعة ، ولكنها غير معتادة على عمل الواجبات من أى نوع كانت . وشعرت أنه ليس من الحكمة أن أكون شديدة معها من البداية ، لذلك عندما جعلتها تتعلم قليلا من الأشياء ، وكنا قرب منتصف النهار ، سمحت لها بالعودة الى وصيفتها .

وأثناء صعودى الى الطابق العلوى ، خاطبتنى مسز فيرفاكس عبر الصالة :

— انتهت ساعات مدرستك الصباحية ، على ما أعتقد .

فدخلت الى الغرفة التى كانت ترتبها وقلت وأنا أتطلع حولى :

— يالها من غرفة جميلة !

— أجل انها غرفة الطعام . لقد فتحت لتوى النوافذ لأسمح بقليل من الهواء وأشعة الشمس . فكل شيء مصاب بالرطوبة في الغرف التى نادرا ما تستخدم.

ـ انك تحافظين على ترتيب الغرف بشكل جيد يا مسز فيرفاكس !

ـ حسـن ، مس جين رغم أن زيارات مسـتر روتشستر هنا نادرة فهي دائما مباغتة وغير متوقعة ، وهو يكره ألا يجد كل شيء جاهزا لاستقباله ٠

ـ هل مستر روتشستر صعب في ارضائه ؟

ـ ليس هكذا بالضبط ، ولكنه له أذواق وعادات السادة الأفاضل ٠

ـ لكن أليس له خصوصيات ؟

ـ انه غريب بعض الشيء ٠ لقد سافر كثيرا ، وشاهد الكثير من العالم أعتقد أنه حاذق ، لكنى لم أتحدث معه كثيرا ، فمن الصعب وصـفه ، ولكنك لا تستطيعى أن تكونى متأكدة عندما يتكلم ،٠اذا كان يمزح أو جادا فى كلامه ٠

وعندما تركنا غرفة الطعام ، اقترحت أن تلف بى لترينى بقيـة المنزل ، فتبعتها الى الطابق العلوى والسـفلى وأنا أبدى اعجابى أثنـاء تجوالى ٠ كانت

الحجرات الامامية الكبيرة فخمة وكانت بعض من حجرات الطابق الثالث رغم العتمة تحتوى على أثاثات قديمة مدهشة · فسألت :

ـ هل ينام الخدم فى هذه الغرف ؟

ـ كلا ، انهم يحتلون مجموعة من الغرف الأصغر حجما فى المؤخرة ·

ـ ليس عندكم أشباح هنا ، على ما اعتقد ؟

فاجابت مسز فيرفاكس وهى تبتسم :

ـ كلا · لم أسمع بذلك · هل تأتى لترى المنظر من السطح ؟

تابعت الصعود على سلم ضيق ثم سلم خشبى . ثم تطلعت ببصرى الى أسفل فرأيت المنطقة منبسطة تحتى مثل الخريطة : مروج ، وحقول ، وغابات ، وكنيسة ، وطريق ، وقرية ، وتلال هادئة ·

وعندما تحركت للنزول ، بقيت مسز فيرفاكس ورائى للحظة لاغلاق الباب المؤدى الى السطح · فوصلت الى الطابق الثالث وانتظرت فى الممر الطويل الفاصل

بين الحجرات الأمامية والخلفية ٠٠ كان ضيقا منخفضا ومظلما له نافذة واحدة فى نهايته ٠

وأثناء سيرى بهدوء ، سمعت مالا يمكن توقعه فى مثل هذا المكان الهادىء سمعت ضحكة ٠٠ كانت ضحكة غريبة ، واضحة ، غير طبيعية وغير مرحة على الاطلاق ٠ فتسمرت فى مكانى ٠ وتوقف الصـــوت ولكن لبرهـة فقط ٠ ثم عاد الضـحك ثانية وبشـكل أعلى ٠ وتضاءل فى انفجار مفعم بالضجيج ٠٠ ففرحت عند سماعى قدوم مسز فيرفاكس نازلة على السلم :

ــ مسز فيرفاكس ! ٠٠ هل سمعت هذه الضحكة العالية ؟ من هذا ؟

فاجابت :

ــ بعض الخدم ، محتمل ٠ ربما جريس بوول ٠ انها تخيط فى احدى هذه الغرف ٠٠

وأحيانا تصاحبها احدى الخدم ، ودائما ما يثيران ضجيجا عندما تلتقيان ٠

وتكررت الضحكة فى نغمتها المنخفضة وانتهت بهمهمة غريبة ٠

فنادت مسز فيرفاكس :

ـ جريس !

لم أتوقع فى الحقيقة الاجـــابة من أحـد ، لأن الضحكة كانت يائسة وكأنها لشبح ٠ ومع ذلك ، انفتح الباب القريب منى وخرجت منه خادمة ـ امرأة بين الثلاثين والأربعين ، لها قوام مربع ووجه قبيح ٠

فقالت مسز فيرفاكس :

ـ ضوضاء زائدة يا جريس ٠ تذكرى الهدوء !

واختفت جريس بامتثال ، ونزلنا نحن الســلم الى الغداء ٠٠

الفصل الرابع عشر

فى الطريق الضيق

لم يعكر صفو الحيـــاة أى شىء فى ثورنفيلد ، وظلت مسز فيرفاكس عطــوفة وصدوقــة · وكانت تلميذتى نشيطة ، طفلة قلقة ، مدللة نوعاما ، لكنها أصبحت مطيعة وراغبة فى التعلم ، وأحرزت تقدما ·

ومرت الشهور : أكتــوبر ونوفمبر وديسمبر · وفى أحد أيام يناير أخذت أديل أجازة لأنهـــا كانت مصابة بالبرد · وكان جو بعـــد الظهر هادئا عذبا · وكانت مســـز فيرفاكس قد كتبت رســـالة وتريد أن ترسلها بالبريد ، لذا عرضت أن أحملها الى القرية على بعد ميلين ·

كانت الأرض عبارة عن جليد شديد التجمد · وكان الهواء ساكنا وطريقي منعزلا ·· فمشيت مسرعة الى أن أحسست بالدفء ، ثم ببطء لأستمتع ببهجة هذا الوقت وبمنظر الريف · كان الطريق ينحدر فوق تل · وعندما سرت نصف المسافة تقريبا ، جلست على مرقى (*) يؤدى الى حقل من الحقول · ومن مقعدى كنت أستطيع أن ألقى ببصرى الى أسفل فارى ثورنفيلد التى ترتفع غاباتها جهة الغرب ·· وكانت الشمس تهبط لتغيب وأنا ألاحظها ، ثم التفت جهة الشرق ·

فوجدت على قمة التل من فوقى وجه القمر يصعد شاحبا بسبب السحاب ، لكنه أخذ يسطع من دقيقة لأخرى · وفى السكون الذى لا يكسر كنت أستطيع أن أسمع بوضوح أصواتا باهتة للحياة فى القرية البعيدة ، وأسمع أيضا رقرقة العديد من جداول المياه الصغيرة التى تجرى فى التلال والوديان ·

(*) حجر يوضع بجوار سور او سياج من الشجيرات يستخدم كدرجة ليساعد على تسلقه ·

واقتحمت جلبة عالية هذه الدمدمات : صـــوت خطوات ثقيلة على الجسر • كان جوادا قادما ، والطريق الضيق الملتوى يخفيه ، لكنه أخذ يقترب • كنت على وشك القيام من جلستى لكن لما كان الطريق ضيقا ، جلست ساكنة لأدع الجواد يمر • ولاحت فى ذهنى كل أنواع التخيلات مشرقة ومعتمة : فكانت هناك ذكـرى قصص جناح الأطفال مع البنات الأخريات •• وعندما اقترب الجواد تذكرت بعض قصص بيسى عن شبح اتخذ شكل جـواد أو كلب وكان يظهـــر فى الأماكن المنعزلة •

واقترب الجواد جدا ، لكنه لم يظهر بعـــد ، عندما سمعت ، بالاضافة الى جلبة أقدامه ، صـــوت اندفاع تحت السور وركض كلب كبير كان يشـبه الأسد ، له شعر طويل ورأس ضخم • وتبعه الجواد يركض ومن فوقه راكبه •• ومرق ، ومشيت بضعـة خطوات ثم التفت ، فلفت انتبـــاهى صوت انزلاق ، وسقوط مفاجىء ••

لقد سقط الرجل والجواد ، بسبب الجليد • وعاد

الكلب راكضا ؛ فرأى سيده في مأزق فنبح بصـــوت مرتفع ثم ركض نحوى للمساعدة . فنزلت المنحدر الى المسافر الذى كان فى ذلك الوقت ينازع ليحرر نفسه من جواده .

- هل اصبت يا سيدى ؟

أعتقد أنه كان يلعن . على أية حال ، لم يجب بشكل مباشر . **فسألت ثانية :**

- هل يمكن أن أفعل اى شىء ؟

فأجاب : وهو ينهض مرتكزا على ركبتيه ثم على قدميه :

- لا .. شكرا ..

ونهض الجواد وسكت الكلب عندما أمــره ، « كف يا بايلوت ! » ، ثم انحنى المســـافر وتحسس حذاءه الطـويل وســـاقه ، ثم جلس على المرقى الذى نهضت من عليه لتوى ، **فقلت له :**

ـ اذا كنت قد أصبت ، وتحتـــاج لمســـاعدة يا سيدى ، فيمكننى احضار أحد من « ثورنفيلد هول »

ـ شكرا ، لا يوجد كسر ٠

ووقف ثانية ولكن مع صرخة الم ٠

بقى بصيص ضئيل من ضوء النهار مع سطوع القمر ، فاستطعت أن أراه بوضـــوح ٠ كان يرتدى معطفا له ياقة من الفراء ، وله وجه داكن بملامح صارمة وجبهة ثقيلة ٠ وكانت عيناه وحاجباه المنخفضان تبدو عليهما مظاهر الغضب ٠٠

ويبدو انه تعدى سن الشباب ، لكنه لم يصـل منتصف العمر بعد ٠٠ لم أشـــعر بخـوف منه ، بل شعرت بقليل من الارتباك ٠ اذا كان شابا صغيرا حسن المظهر ، أو اذا كان ابتسم ورفض عرضى بمرح وامتنان لكنت ذهبت فى طريقى ، ولكن خشونة المسافر جعلتنى على راحتى ، وعندما لوح لى بالذهاب ، بقيت كما كنت قائلة :

ـ لا يمكن أن اتركك يا سيدى فى ساعة متأخرة

كهذه ، وفى مكان منعزل كهذا ، حتى أراك قادرا على ركوب جوادك ٠

فنظر الى بشكل مباشر لأول مرة وقال :

ـ اعتقد انك يجب أن تكونى انت نفسك فى بيتك ، من أين أتيت ؟

ـ من تحت ٠

ـ هل تعيشين تحت ٠٠ تقصدين فى هـــذا المنزل ؟

وأشار الى « ثورنفيلد هول » ٠

ـ اجل يا سيدى ٠

ـ منزل من هذا ؟

ـ منزل مستر روتشستر ٠

ـ هل تعرفين مستر روتشستر ٠٠ ؟

ـ كلا ، لم أره مطلقا !

ـ انك لست بخادمة فى « الهول » ، بالطبع ٠ انت ٠٠٠

ثم توقف ، وبدت عليه الحيرة بعـــد أن تطلع الى ردائي البسيط ، **فقلت :**

ـ انني المربية ٠

فاجاب :

ـ آه ، المربية ! لقد نسيت ٠٠

وفي دقيقتين نهض من جلسته ، وعبر وجهه عن الألم وهو يحاول التحرك ، **وقال :**

ـ يمكنك مساعدتي قليلا ، اذا تكرمت ٠ ارجوك أن تأتي الى هنا ٠

فجئت واستمر قائلا :

ـ معذرة ، فالضرورة تجبرني أن استخدمك ٠

ووضع يدا ثقيلة على كتفي ، واستند على بشيء من القوة ، وتحرك تجاه جواده ٠ وعندما أمسك به ، تحكم فيه مباشرة وقفز على سرجه ، **وقال :**

ـ والآن ، ناوليني سوطي ، انه هناك بجـــانب السور !

ووجدته ٠

ـ شكرا ٠ والآن اذهبى الى البيت بسرعة ٠

وبلمسة كعب اختفى الجواد والكلب والرجل الى أسفل التل ٠

وواصلت المسير الى القرية مع رسالتى منفعلة بهذه الاثارة ٠٠ كانت حادثة صغيرة ، لكنها كانت علامة تغيير لساعة من حياتى الفاترة ٠

ولم اعد أحب العودة الى ثورنفيلد ٠ فالمرور الى داخلها يؤدى الى عالم هادىء ســـاكن ٠٠ وبقيت فى الحديقة لفترة حتى دقت الساعة فدخلت ٠

لم تكن الصالة مظلمة ٠ وانبعث ضوء دافىء غير عادى من غرفة الطعام ، واستطعت ان أرى ، عبر الباب المفتوح نار المدفأة ساطعة ٠ وسمعت همهمة أصـــوات ورأيت زمرة قرب المدفأة ٠

فأسرعت الخطى الى غرفة مسز فيرفاكس ، ولكنى لم أجد أية شمعة ولا مسز فيرفاكس ٠ وبدلا من ذلك تعرفت على الكلب الكبير الذى كان قابعا على سجـــادة

أمام المدفأة • فنهض وجاء الى • قرعت الجرس حيث اردت شمعة ، فدخلت خادمة ، فسألتها :

ـ كلب من هذا ؟

ـ لقد جاء مع السيد

ـ مع من ؟

ـ مع السيد ••• مع مستر روتشستر ••• لقد وصل لتوه !

ـ حقا ! هل مسز فيرفاكس معه •

ـ أجل ، والآنسة أديل • انهم في غرفة الطعام ، وذهب جون لاحضار الطبيب لان سيدى وقع له حادث • لقد سقط جواده ••

الفصل الخامس عشر

محادثة مع مستر روتشستر

ولعدة أيام لم ألتق بمستر روتشستر الا قليلا . ففي الصباح كان يبدو منشغلا بالاعمال ، وبعد الظهر كان يزوره رجال من المنطقة ويبقون أحيانا للعشاء معه . وعندما شفيت قدمه تماما أخذ يركب جواده باستمرار .

وخلال هذا الوقت ، حتى أديل لم ترسل اليه الا نادرا . وكل معلوماتي عنه كانت محدودة بلقاءات عابرة حول المنزل ، وأحيانا كان ينظر الى بشيء من البرود ، وأحيانا كان ينحني ويبتسم . وكانت تغيرات

سلوكه لم تضايقنى ، لأننى رأيت ان ليس لى ما أفعله ازاء أسبابها ٠

وفى يوم بعد العشاء جاءت رسالة بأن نذهب أنا وأديل الى الطابق العلوى ٠ وصعدنا ، مع تساؤل أديل اذا كان الصندوق الصغير الذى وعدها به قد أحضره أخيرا ٠ ولم يخب ظنها ٠ كان موضوعا على مائدة غرفة الطعام ٠ فركضت تجاهه صارخة :

ــ صندوق هداياى !

فقال مستر روتشستر بصوت عميق فيه نبـرة استهزاء :

ــ أجل ، ها هو الصندوق ٠ خذيه واجلسى به هناك بدون صوت ، هل تفهمين ؟

كانت أديل قد استولت على كنزهـــا ٠ ونهض السيد من مقعده وهو يقول :

ــ هل الآنسة جين هنا ؟ تعالى واجلسى هنا ٠

وسحب كرسيا بالقرب من كرسيه واستمر قائلا :

ـ انني لست مغرما بحديث الأطفال · لا تسحبي هذا الكرسي الى الخلف أبعد من ذلك · اجلسي بالضبط حيث وضعته ·· أقصد من فضلك ·· انني أنسى هذه الآداب ·· ولا اهتـم كثيرا بالسيدات العجـــائز ذات العقليات البسيطة · ومع ذلك يجب أن ادعو مدبرة منزلي على ما اعتقد ·

وقرع الجرس لمسز فيرفاكس ، وطلب منها أن تتكلم مع أديل · كان مستر روتشستر وهو جالس على كرسيه لا يبدو بمظهر القاسي وكان أقل جهامة بكثير مما كنت أعتقد ·· وكانت على شفتيه ابتسامة وكانت عيناه لامعتين ربما من شرب النبيذ ·

كان يتطلع الى المدفأة فترة من الوقت وكنت أتطلع اليه في هذه الفترة ، عندما التفت فجأة واصطاد عيني مثبتة على وجهه ، فقال :

ـ انك تتفحصيني · هل تعتقدين بأنني حسن المنظر ؟

فانزلج الجواب من لساني بطريقة ما قبل أن أتحقق منه :

ـ كلا يا سيدى ٠

فقال :

ـ آه ! بالتأكيد هناك شيء ما غير عادى عنك ! لك مظهر راهبة صغيرة ، هادئة ، بسيطة ، جادة ، ومع ذلك عندما يسألك أحد سؤالا ، فلك اجابة حـــادة خاضرة ٠ ماذا تقصدين بذلك ٠

ـ سيدى ، اننى أتكلم بحرية شديدة ٠ أرجو المعذرة ٠ كان يجب أن أجيب بأن ليس جميع الأذواق متشابهة ، فالمظهر ليس مهما ، أو شيء من هذا القبيل٠

ـ كان لا يجب أن تجيبى هكذا ٠ المظهر ليس مهما ، حقا ! استمرى ! هل لى أن اسأل ما هو العيب الذى تجدنيه فى ؟

ـ مستر روتشستر ، لقد أخطأت ٠

ـ حسن ، ستتحملين وزر ذلك ٠ انتقدينى ٠ هل جبينى لا يرضيك ؟ ٠٠ والآن ، هل أنا أحمق ؟

ـ بعيدا عن هذا يا سيدى ٠ ربما تعتقد أنى

وقحة اذا استفسرت بالمقـــابل اذا كنت رجلا ذا قلب رحيم ؟

ـ اجابة حادة أخرى ! كلا يا فتاتى ، لســـت كذلك ··· هذا بصفة عامة : ولكنى ذو ضمير · كان لدى قلب رقيق عنـــدما كنت صغيرا · لكن الحيـــاة مرستنى فأنا الآن قاس ·· فيما عدا ، ربما ، مكان أو اثنين صغيرين · هل تقولين بأن هناك أملا فى ضياع هذه القسوة ؟

ولم أدر بأى أجابة أقول ··

ـ تبدين متحيرة جدا يا مس اير · ورغم انك لست جميلة أكثر من كونى حسن المظهـــر ، فتعبير الحيرة يناسبك . علاوة على أنه شيء مريح أن يبعد عينيك المنقبتين بعيدا عن وجهى · يا فتاتى ، اننى أشعر بحب الكلام الليلة ، لهذا ارسلت فى طلبك · سيرضينى الآن أن أعرف عنك أكثر ··· لذا ، تكلمى ·

جلست ولم أقل شيئا · فاحنى راسه وتطلع الى وجهى وقال :

ـ انك صامتة يا مس اير · آه ! هل تضايقت·· مس اير ، أرجو المعذرة · لقد عبرت عن نفسى بطريقة غبية · أود أن تكون لديك الطيبة لتتحدثى معى قليلا ·

ـ اننى راغبة فى أن أسرى عنك ، اذا استطعت يا سيدى ، ولكن كيف لى أن أعــــرف الموضوع الذى سيهمك ؟ اسألنى أسئلة وسأفعل ما فى وسعى للاجابة عليها ·

ـ اذن ، أول كل شىء ، هل توافقين بأن لى الحق فى أن أكون آمرا بعض الشىء ، حيث أنى فى سن أبيك ، ولدى خبرة واسعة بالحياة ؟

ـ لا أعتقد يا سيدى ، بأن لك الحق فى أن تأمرنى لهذا السبب ، فطلبك بناء على هذه الميزة يعتمد على استخدامك لوقتك ·

ـ هذا لن يناسب حالتى ، حيث أننى أســـأت استخدامه · ولكن هل لازلت توافقين لتلقى أوامرى من وقت لآخر دون أن تتضايقى من الصوت الآمر ؟

فابتسمت ، فقال :

– الابتسامة شيء جميـــل جـدا ، لكن تكلمى أيضا ٠

– كنت أفكر يا سيدى ، فى أن القليلين جـــدا من يزعجون انفسهم ليستفسروا عما اذا كانوا يؤذون احاسيس هؤلاء الذين يقومون بخدمتهم ٠٠

– آه ! لقـد نسيت ! انى ادفـــع لخدماتك ! حسن ، لهذا السبب ، هل تسمحين لى بأن أكون آمرا بعض الشيء ؟

– كلا يا سيدى ، ليس لهذا السبب ٠٠ بل لأنك تهتم بأحاسيس هؤلاء الذين تستخدمهم ٠٠ بهذا أوافق عن طيب خاطر !

– أعطينى يدك لأسلم عليك على اجابتك هذه ٠ فلا يوجد ثلاثة من ثلاثة آلاف مربية تلميذات مدارس يجبن كما أجبت أنت ٠ انا لا أقصـــد أن أمدحك : فاذا كنت مختلفة عن الأخريات ، فلست صاحبـــة الفضل فى ذلك ، بل الطبيعة هى صاحبة الفضل الأول ٠

وأنا لا أعرفك جيدا • فقد تكون لديك أخطاء لا تحتمل مقابل حسناتك •

فقلت فى نفسى :

ـ وربما أنت كذلك •

والتقت عيناى بعينيه عندما جالت الفكرة فى خاطرى • وبدأ يقرأ الكتاب ، فقال :

ـ انك على صواب • ان لى كثيرا من الاخطاء • وماضى ليس طاهر الذيل • لقد وجهت الاتجاه الخطأ عندما كنت فى الحادية والعشرين ، ولم أعد الى الطريق المستقيم منذ ذلك الحين •• انى احسدك لما تتمتعين به من سلام مع عقلك ، ونظافة ضمير ، وذاكرة صافية •

ـ لم يفت الوقت للاصلاح يا سيدى •

ـ وما فائدة التفكير فيه ؟ طالما أن السعادة محرمة على ، فلى الحق فى انتزاع المتعة من الحياة !

ـ سيكون مذاقها مرا يا سيدى •

– ألم تضحكين أبدا يا مس اير ؟ لا تزعجي نفسك بالاجابة ··· انني اراك تضحكين نادرا ، ومع ذلك يمكنك أن تكوني مرحة بشكل طبيعي · مازال نظام لوود باقيا معك ··· تتحكمين في ملامحك ، وتخشين في حضور رجل أن تبتسمي بمرح أو تتكلمي بحرية مطلقة أو تتحركي بسرعة · ومع ذلك اعتقد انك تتعلمين أن تكوني طبيعية معي · ارى أحيانا نظرة طائر فضولي من خلف قضبان القفص المغلق هل ستذهبين الآن ؟

– لقد دقت الساعة التاسعة يا سيدي ·

– لا تقلقي ، انتظري قليلا · فأديل ليست مستعدة للذهاب للنوم بعد · كنت أراقبها · فمن عشر دقائق تقريبا أخرجت من صندوقها الصغير رداء حريريا وردي اللون والفرح يضيء وجهها ، واندفعت خارجة لتقيسه ، وستأتي حالا ، انها تشبه أمها بالضبط ·

وبعد لحظات سمعنا أقدام أديل الصغيرة عابرة الصالة ، ودخلت ترقص وصرخت باللغة الفرنسية :

ـ اليس ثوبى جميلا ٠٠ وحذائى وجواربى ٠

فنظر مستر روتشستر اليها بسخرية وقال :

ـ ساشرح قصتها فى يوم ما ٠ تصبحين على خير ٠٠ !

الفصل السادس عشر

الحريق !

وبالفعل شرح مستر روتشستر قصة أديل فى احدى المناسبات · ففى أحد الأيام كنت معها بالحديقة ·· وبينما كانت تلعب مع الكلب بيلوت ، أخبرنى أنها كانت ابنة راقصة فرنسية أحبها ذات يوم ، لكنهـــا خدعته وهربت مع موسيقى ، فعطف على الطفلة التى تركتها وراءها ·

بدت لى الثقة التى أبداها لى عـلامة احترام ، وقبلتها على هذا النحو · ولم يتغير سلوكه نحوى لعدة أسابيع · وعندما كان يقابلنى بشكل غير متوقع كان

يبدو عليه أنه مسرور باللقاء • ودائما ما يكون لديه كلمة أو ابتسامة لى •• وعندما طلبنى رسميا للقائه ، شرفنى بترحاب حار • ولم أتكلم فى الحقيقة الا قليلا جدا • ولكنى استمتعت بمحادثته وبمعرفته بالعالم •

وسلوكه السهل ومودته جعلتنى أحبه وشعرت في بعض الاوقات وكأنه قــريب لى أكثر من كـونه مستخدمى • ومع ذلك كان لا يزال آمرا أحيانا ، ولم يكن يقلقنى ذلك : اذ رأيت أن هــذه هى طريقته • وأصبحت سعيدة جــدا بهــذا الاهتمام الجديد فى حياتى ، حتى انى لم أعد أتمنى وجود أقارب وتحسنت صحتى •

وهل كان مستر روتشستر قبيحــا فى عينيى الآن ؟ كلا ، فالشعور بالامتنان جعل وجهه أكثر شيء أحب أن أراه ، وكان حضوره فى الغرفة مبهجا أكثر من أى نــار مدفأة •• مازلت أتعـرف على عيوبه ، لكن بدا لى أن النظرة الغاضبة التى ترتسم على وجهه أحيانا كانت كتذكر فعل خاطىء أصابه فى الماضى ، وكنت آسفة له •

كنت أفكر في كل هذا في احدى الأمسيات وأنا استعد للنوم · واستلقيت ولكنى لم أستطع النوم · كنت اقلب فى رأسى الحقيقة التى أخبرنى بها أنه يكره ثورنفيلد · وحسب ما قالته مسز فيرفاكس فهـو من النادر أن يبقى أكثر من أسبوعين فى كل مرة ·· ومع ذلك ففى هذه المرة بقى أكثر من شهرين · والمنـــزل يبدو خاويا بدونه ·

ولم أدر ان كنت قد نمت أم لا بعد هذه الأفكار ، الا أننى تحركت فجاة على سماع همهمة خافتة ، غريبة ومنخفضة بدت فوقى تماما ·· فجلست فى السرير ، أتصنت · فاختفى الصوت ·

وحاولت النوم مرة أخرى ، لكن قلبى دق بشكل قلق · ودقت الساعة البعيدة فى الصالة السفليـــة الثانية صباحا · وبدا عندئذ أن باب حجرتى قد تلمسه احد ، كأن أصابع مرت فوق الخشب لتتحسس الطريق على طول الممر المظلم فى الخارج · فقلت :

ـ من هناك ؟

ولم يجب أحد وأصبحت باردة من شدة الخوف ٠

وبسرعة تذكرت ربما يكون بيلوت الذى عندما يترك باب المطبخ مفتوحا مصادفة ، يتخذ طريقه أحيانا الى غرفة مستر روتشستر ٠ هدأتنى الفـــكرة قليـــلا وبدأت أشعر بالنعاس ٠

وكان حلما يقترب عندما سمعت ضحكة منخفضة عميقة شريرة ٠ ضحكة روح ضالة وبدت وكأنها آتية من ثقب الباب ٠ وتكرر الصوت ٠ وكانت فكرتى الأولى أن أنهض وأغلق الباب باحكام ، والثانية أن أصيح : « من هناك ؟ » ٠

كان هناك شيء يئن ٠ وصوت وقع أقدام صاعدة من الممر الى سلم الطابق الثالث ٠ كان قد تم مؤخـــرا صنع باب لاغلاق مدخل هذا السلم ، فسمعته يفتح ثم يقفل ٠

هل كانت هى جريس بوول ؟ كان من المستحيل حاليا أن أبقى وحدى ٠ لابد أن أذهب الى مسز فيرفاكس فارتديت ملابسى وفتحت الباب بيد مرتعشة ٠ ولدهشتى

كانت توجد شمعة فى الخارج ، ولدهشتى أكثر ملاحظتى أن الهواء كان ثقيلا تماما وكأنه مملوء بالدخان · ثم وعيت على رائحة حريق قوية ·

وتحرك شيء ما · انه باب ترك مفتوحا · انه باب مستر روتشستر · واندفع الدخان منه فى سحابة · لم أعد أفكر فى جريس بوول ولا الضحك · وفى لحظة كنت فى غرفة النوم · كانت ألسنة اللهب تتحـــرك حـــول السرير ، وكانت الســـتائر مشتعلة ومستر روتشستر يرقد ممددا بلا حـــراك فى نـــوم عميق ، فصرخت :

ـ انهض ! انهض ! وهززته لكنه تمتم وتقلب ، اذ جعله الدخان شبه فاقد الوعى · ولا يمكن ضياع دقيقة واحدة · واندفعت الى طسته وابريقه · ولحسن الحظ كان كلاهمـــا مملوءا بالماء ، فرفعتهما بصعوبة وأغرقت السرير والنائم بالمـــاء وطرت عائدة الى غرفتى وأحضرت ابريقى وبعون الله نجحت فى اخماد اللهيب ·

واستيقظ مستر روتشستر أخيرا ، وسمعتـــه

يستخدم الفاظا نابية عندما وجد نفسه فى بركة من الماء • وسأل :

ــ هل هناك فيضان ؟

فاجبت :

ــ كلا يا سيدى ، ولكن كان هنـــاك حريق • انهض ، فلقد تم اخمادها •

فسأل :

ــ باسم كل ما هو مدهش ، هل هذه جين اير ؟ ماذا فعلت بى يا ساحرة ؟ هل خططت لاغراقى ؟

ــ شخص ما قد خطط شيئا • لا يمكنك اكتشاف ذلك توا •

وأخذ يبحث عن ملابس جافة وأثناء ذلك أحضرت الشمعة التى ما زالت موجودة فى الممر • وأخذها من يدى ورفعها ، وفحص السرير فكان كله مسودا ومحترقا وكانت الملاءات المبتلة والسجادة كلها تسبح فى الماء ، ووصفت بايجاز ما قد حدث • وأنصت باهتمام مرتسما

على وجهه القلق أكثر من الاندهاش . ولم يتكلم عندما أنهيت كلامي ، فسألته :

- هل أنادي مسز فيرفاكس ؟

- مسز فيرفاكس ؟ كلا ، ما الذى ستنادينها من أجله ؟ دعيها تنام فى سلام !

- اذن ، سأحضر الخدم .

- لا داعى . هدئى من روعك .. خذى معطفى ، اجلسى على كرسى وجنبى قدميك من البلل . سأقوم بزيارة الطابق الثالث . سآخذ الشمعة . ابق حيث أنت . لا تتحركى ولا تنادى على أحد

وذهب ، وراقبت الضوء وهو يختفى فى الممر . مضت مدة طويلة وتعبت من الانتظار . كان الطقس باردا ، ولم أر جدوى للبقاء . ثم دخل أخيرا شاحبا ومكتئبا ، وقال وهو يضع الشمعة :

- لقد اكتشفت كل شيء . انها كما توقعت .

- كيف يا سيدى ؟

ولم يجب ، ولكنه وقف ناظــرا الى الأرض ٠
وبعد دقائق استفسر بصوت غريب :

ـ نسيت ، هل قلت انك رأيت شيئا عندمــا فتحت الباب ٠

ـ كلا يا سيدى مجرد الشمعة بالخارج ٠

ـ ولكنك سمعت ضحكة غريبة ؟ لقد ســمعت هذه الضحكة من قبل ، أو شيء من هذا القبيل ، أليس كذلك ؟

ـ أجل يا سيدى ٠ توجد امرأة تخيط هنــا تدعى جريس بوول ٠٠٠ انها تضحك بهذه الطريقة ٠

ـ انك لصــائبة ، جريس بوول ٠٠٠ حسن ، سأتصرف في الموضـــوع ٠ لا تذكرى شيئا عنـــه ، وسأجد حلا لهذه الحالة ٠

واشار الى السرير ٠ ثم اردف قائلا :

ـ والآن عودى الى غرفتك ٠

ـ تصبح على خير اذن يا سيدى ٠

– ماذا ؟ هل ستتركينى الآن !

– لقد قلت يمكننى أن أذهب يا سيدى ٠

– ولكن ليس بدون بعض التشـــكرات ٠ لماذا أنقذت حيـاتى ٠ على الأقل صافحينى ٠ وفرد يده ٠ وأعطيته يدى التى أخذها بيد واحدة فى البداية ، ثم فى كلتا يديه ، **وقال :**

– انه لمدعاة لسرورى أن أكون مدينا لك بهـذا الدين الكبير ٠ فلا أحتمل أن أدين به لأى أحد آخر فى العالم ٠

وتوقف وحملق فى ، وارتعشت الكلمـــات على شفتيه ٠٠٠ ثم تحكم فى نفسه ٠

– لا يوجد دين يا سيدى ٠

– عرفت أنك ستسدين لى معروفا بطريقة ما ٠٠ لقد رأيت ذلك فى عينيك عندما قابلتك أول مــرة ٠ فتعبيرهما وابتسامتهما لم ٠٠٠

ثم توقف ٠٠٠ ثم استمر فى تردد :

ـ لم تسكبا مثل هذه البهجـــة فى قلبى بدون مقابل • منقذتى العزيزة الغالية ، تصبحين على خير !

وكان فى صوته طاقة غريبة وفى نظراته نـــار غريبة ، **فقلت قبل ان اذهب :**

ـ أنا سعيدة اننى كنت مستيقظة !

ـ ماذا ! •• ستذهبين ؟

ـ اننى اشعر بالبرد يا سيدى •

ـ تشعرين بالبرد ؟ اجل ، وتقفين فى بركة • اذهبى اذن ، يا جين ، اذهبى !

ولكنه لا زال ممسكا بيدى ، **ففكرت فى عـــذر قائلة :**

ـ اعتقد اننى أســـمع مســز فيرفاكس تتحرك يا سيدى •

فارخى أصابعه وذهبت •

وعدت الى سريرى لكنى لم أفكر في النوم أبدا ٠ فعقلى كان به خليط من الفرح والقلق ، الحكمة تصارع العاطفة وانفعالى يفوق كل شيء ، وقمت بمجرد أن ظهر ضوء النهار ٠٠

الفصل السابع عشر

جريس بوول

وددت ، وخشيت فى نفس الوقت أن أرى مستر روتشستر فى اليوم التـالى لهذه الليلة القلقة • ومر الصباح ، رغم ذلك ، كالمعتـــاد • ولم يحدث أى شيء يعكر من دراسة أديل •• وسمعت بعد الافطار مباشرة الخدم وهن مشغولات بالقرب من غرفة مستر روتشستر وعندما مررت عليها فيما بعد رأيت كل شيء فى أكمل ترتيب مرة أخرى ، ورأيت امرأة جالســـة على كرسى بجانب السرير ، تخيط حلقات فى ســـتائر جديدة • انها جريس بوول كانت تجلس هناك مشغولة بعملها بوجهها الجامد وملامحهـا العادية ، على الأقل ليست

لامرأة حاولت ارتكاب جريمـــة واكتشف أمرها .
وتطلعت الى عندما حملقت فيها وقالت :

– صباح الخير يا آنسة !

قالتها بطريقة عادية . بلا حركة وبلا تغير فى لون وجهها ودون اعطاء أية علامات احساس بالذنب أو الخوف من أن أمرها قد انكشــف ، **ولذلك فقــد قلت فى دخيلتى :**

– سأختبرها بطريقة ما .

وقلت بصوت مسموع :

– صباح الخير يا جريس . هل حدث شىء هنا ؟ أعتقد اننى سمعت الخادمات كلهن يتحدثن سويا من فترة قصيرة .

– كان سيدى يقرأ فى فراشه ليلة أمس ونــام والشمعة مضاءة فاشتعلت النار فى الستائر . ولحسن الحظ استيقظ فى الوقت المناسب وأخمدها .

فقلت بصوت خافت : « حاجة غريبة ! » ثم نظرت اليها وقلت :

– **ألم يوقظ مستر روتشستر أى أحد ؟**

فرفعت عينيها الى واخذت تتفحصنى بعناية ثم اجابت :

ـ كان الخدم يغطون فى النوم ، تعرفين يا آنسة ، فلا يمكن أن يسمعوا شيئا ! وغرفة مسز فيرفاكس وغرفتك أقرب الغرف لغرفة السيد · ومسز فيرفاكس تقول انها لم تسمع شيئا · فعندما يكبر الناس يغطون فى نومهم ·

وتوقفت ثم اضافت :

ـ ولكنك صغيرة يا آنسة وربما أخف نوما · هل سمعت ضجة ؟

فقلت فى صوت منخفض :

ـ سمعت ، فى الأول اعتقدت أنه بيلوت ، لكن بيلوت لا يستطيع الضحك ، وانى متأكدة انى سمعت ضحكا ·· وكان ضحكا غريبا ··

كانت تمسك بالابرة بيد ثابتة ، ثم قالت بهدوء :

ـ من الصعب على السيد أن يضحك يا آنسة وهو فى خطر · لابد أنك كنت تحلمين ·

فاجبت :

ـ لم أكن أحلم ٠

فنظرت الى مرة اخرى واستفسرت :

ـ هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكا ٠٠ ؟

ـ لم تأت الفرصة لأتكلم معه هذا الصباح ٠

ـ ألم تفكرى فى فتح بابك وتنظرين ؟

فقلت :

ـ على العكس تماما ، فلقد أحكمت اغلاق الباب.

ـ اذن ، ليس من عادتك أن تحكمين اغلاق بابك كل ليلة ؟

جال بفكرى أنها لو اكتشفت أوشكت بأننى أعرف جريمتها ربما بدأت تلعب على ببعض حيلها الشريرة ، وربما تحاول أن تعرف عاداتى ، **فاجبت بحدة :**

ـ سأهتم ، فى المستقبل ، باغلاق كل شىء قبل أن أنام ٠

فاجابت :

ـ من الحكمة أن تفعلى ذلك ٠

وأثناء الغداء لم أسمع ما قالته مسز فيرفاكس عن الحريق بالضبط ، فلقد كنت مشغولة فى شحذ عقلى فى شخصية جريس بوول الغامضة ، وخصوصا مركزها فى ثورنفيلد ، والسبب فى عدم القبض عليها أو على الأقل طردها من الخدمة ٠ ولقد اعترف مستر روتشستر بجريمتها ، ولكنه جعلنى أقسم بأن أحفظ السر ٠ انه لشىء غريب أن يكون مثله ، الجرىء المعتز بنفسه محكوما بنفوذ واحدة من خدمه ٠

وانتظرت بفارغ الصبر للساعة التى يجب أن أرى مستر روتشستر فيها ذلك المساء ، فلدى أشياء كثيرة أقولها له ٠٠ أريد أن أقدم موضوع جريس بوو واسمع ما يجيب عليه ٠

وظهرت أخيرا احدى الخدم ، ولكن لتقول ان الشاى جاهز فى غرفة مسز فيرفاكس ٠

وقالت السيدة الطيبة عندما وصلت اليها

ـ لابد أنك فى حاجة الى الشاى . لقد أكلت الشىء النزير على الغداء . أخشى أن تكونى متوعكة . تبدين مريضة .

ـ أوه ! اننى بخير تماما .

فاضافت قائلة :

ـ لقد كسب مستر روتشســــتر يوما جميلا لرحلته .

ـ رحلة ! هل خرج مستر روتشستر ؟

ـ أوه ، لقد قام بعد الافطار مباشرة . لقــــد ذهب الى لياس .. لمنزل مستر اشتون ، الذى يقع على بعد عشرة أميال من الجانب الآخر من ميلكوت . أعتقد انه يوجد حفل هناك .

ـ هل تتوقعين عودته الليلة ؟

ـ كلا ، أعتقد انه قد يبقى أسبوعا أو أكثر .. ان مستر روتشستر مسل جدا وملىء بالحيــوية وخفة الظل فى الحياة الاجتماعية ، حتى اننى أعتقد بأنه محبوب فى كل مكان . والسيدات مغرمات به .

ـ هل توجد سيدات فى ليباس ؟

ـ هناك مسز اشتون وبناتها ٠٠ بنات شـــيك جدا فى الحقيقة ، وهناك أيضا الآنسات مثل بلانش ومارى انجرام وهما من أجمل الفتيات ٠ عندما كانت بلانش موجودة فى احتفال الكريسماس كانت تعتبـر أجمل الموجودات ٠

ـ كيف كان شكلها ؟

ـ قوام فارع ، ذات رقبة طويلة رشيقة ، ملامح نبيلة ، عيون واسعة سوداء تلمع مثل الجواهر ورأس جميل يتوجه شعر أسود ملفوف ٠

ـ أثارت الاعجاب بالطبع ؟

ـ أجل ، وليس لجمالها فقط ، ولكن لانجازاتها ٠ فهى تغنى ، هى ومستر روتشستر غنيا سويا ٠

ـ لم أكن أعرف أن مستر روتشستر يســـتطيع الغناء ٠

ـ أوه ، ان له صوتا عذبا وحسا موسيقا ممتازا ولقد شكر جدا فى غناء مس انجرام ٠

ـ وهذه الفتاة الجميلة البارعة لم تتزوج بعد ؟

ـ أعتقد انها لا هي ولا أختها لديها ثروة كبيرة ٠

وعندما عدت وحدى مرة أخرى ، استرجعت المعلومات التي حصلت عليها ٠

ونقبت في قلبي لأتمحص أفكاره وأحاسيسه ، وحاولت أن استرجعهما الى المنطق والادراك السليم٠

فخاطبت نفسي بشدة :

ـ يالك من حمقاء يا جين اير ، لم تتنسمي مطلقا نفس الحياة ٠ أنت مفضلة عند مستر روتشستر؟ انت لك أهمية عنده بأى شكل ؟ هيا اذهبي ! ان غباءك يثير اشمئزازى ٠ ان الاهتمام الذى يوليه المستخدم لامرأة تعمل عنده لا يعني شيئا بالنسبة له ٠ انه من الجنون أن تسمحي لحب مقلص أن يشتعل داخلك ٠

اسمعي ، اذن ، يا جين اير ، لعقابك ٠ من الغد ، ضعي المرآة أمامك وارسمي نفسك باخلاص ، بدون أن تخفى أى عيب ٠ واكتبي تحتها :

« صورة مربية فقيرة قبيحة » ٠

وبعد ذلك ، ارسمى أجمل وجه يمكن أن تتخيليه بأنعم الألوان طبقا للوصف الذى قدمته مسز فيرفاكس واطلقى عليه « بلانش فتاة بارعة ذات محتد » ٠

وعنـــدما تتخيلين ، فى المستقبل ، أن مستر روتشستر يفكر فيك ، اخرجى الصـــــورتين وقارنى بينهما ٠

وفعلت ذلك ، وبعد فترة كان هناك سبب لأهنىء نفسى على النظام الذى أجبرت أحاسيسى عليه ٠

الفصل الثامن عشر

حفلة منزلية

مضى على مستر روتشستر أكثر من أســـــبوعين عندما استلمت مسز فيرفاكس رسالة منه ٠

وبينما كانت تفتح المظروف لتقرأه تشـــاغلت بشرب قهوتي ٠٠ واهتزت يدى وسكبت نصف القهوة من فنجاني الى طبقي ٠

وقالت :

– حسن ، أفكر أحيانا باننا في هدوء تام ، لكن الآن سننشغل بما فيه الكفاية لفترة من الوقت ٠ سيكون مستر روتشستر هنا في غضون ثلاثة أيام وســـياتي

معه كثير من الناس الحلوة · انه يبعث بأوامره لاعداد المنزل بأكمله ·

أنهت مسز فيرفاكس افطارها وأسرعت لتبدأ المهام وكانت الأيام الثلاثة التالية أياما نشطة · لم أر مطلقا مثل هذا التنظيف والغسيل والتلميع من السجاد والزجاج والصور المعلقة · وأخذت أديل تجرى بحيوية زائدة فى خضم ذلك ترقص من أول البيت الى آخره ، وتنقب فى ملابسها ·· ولقد أعفيتها من واجباتها الدراسية · وطلبت مسز فيرفاكس مساعدتى وأصبحت طول الوقت فى غرفة الخزين أساعدها وأساعد الطباخ ولم يكن لدى وقت للأفكار السوداء ، بل كنت نشطة ومرحة مثل الجميع ، الا عندما تصادف وأرى باب سلم الطابق الثالث مفتوحا وجريس بوول نازلة منه ، كعادتها ، لتأكل غداءها بالمطبخ ·· فكنت أفقد ابتهاجى

وكان أغرب شيء أنه لم يكن يبدو على أحد بالمنزل، سواى ، ملاحظة عاداتها أو التعجب لها · ولم يناقش أحد وضعها أو وظيفتها · وسمعت بالصدفة ذات مرة جزءا من محادثة فى الموضوع بين اثنين من الخدم :

ـ انها تحصل على أجر طيب ، على ما أظن ؟

ـ أجل ، يا ليتني مثلها · انني لا أشكو من أجرى ولكنه لا يصل الى خمس المبلغ الذى تقبضه مسز بوول

ـ انها مجتهدة فى عملها ، على ما أعتقد ·

ـ آه ، انهـا تفهم ما يجب أن تعمله · لا أحد يستطيع القيام بعملها ·

ـ حقا ! ترى هل السيد ··

فى تلك اللحظة لاحظتنى احداهما وأعطت اشارة لصاحبتها بان تكون حذرة ·

وسمعت الأخرى تقول هامسة :

ـ ألا تعرف ؟

فهزت الأولى راسها وسكتت كلتاهما ··

ومرت الأيام الثلاثة وبعد ظهر اليوم الرابع ارتدت مسز فيرفاكس ثوبا حريريا أســود جميــلا وتحلت بساعتها الذهبية حيث ان طبيعة عملهــا اســتقبال القوم ، وتقود السيدات الى غرفهن ، وهكذا ·

واخيرا سمعنا عجل العربات وجاء أربعة ركاب مسرعين عبر الطريق المحفوف بالأشـــجار ، يتبعهـــم عربتان ‥ وكان اثنان من الركاب من الشباب والثالث مستر روتشســـتر · أما الراكب الرابع الذى يركب بجواره ، فكان امرأة !

وقالت مسز فيرفاكس وهى تسرع الى مكانهـــا بالطابق السفلى :

ــ مس انجرام !

وسمعنا حركة مرحة فى الصـــالة · أصـــوات رجال عميقة والأنغام الفضية للسيدات اندمجت سويا وكان صوت سيد ثورنفيلد هول واضحا فوق الجميع رغم عدم ارتفاعه مرحبا بالضيوف ·

أخذت أديل تتوسل للنزول ووجدت صــــعوبة فى أن أقنعها بأنها لا يجب أن تنزل الا اذا طلب منها ذلك ‥ وأخذت أقص عليها قصصا طوال فمـــا كان بامكانها الانصات ، ثم ، كتغيير ، أخذتها خارجا لتتطلع من سلم الخدم وتراقب الخدم · وهن يقمن بحمـــل أطباق الطعام ·

وعندما تقدم المســاء انبعثت الموسيقى من غرفة الاستقبال متبــوعة بمحادثة · فأنصت طويلا · وفجأة اكتشفت بأننى أحاول أن أتصيد صوت سيدى وأفهم ما يقول ··

وفى اليوم التالى قالت لى مسز فيرفاكس :

ـ حدث وأبديت ملاحظة لمستر روتشستر عن أديل وكم هى تواقة فى أن تتعرف بالسيدات ، فقال : « أوه ، دعيها تأتى الى غرفة الاستقبال بعد العشـــاء وأطلبى من مس اير أن تأتى معها » ·

ـ لقد قال ذلك من منطلق التادب · لا داعى أن أذهب ، بالتأكيد ·

ـ لقد أخبرته بأنك لم تعتادى على المجتمع ، وقد لا تحبين الظهور فى مثـــل هذه الحفلات المرحـة ، فأجاب بطريقته السريعة : « كلام فارغ ! اذا اعترضت قولى لها انها رغبتى الشخصية ، واذا أصرت اخبريها بأننى سآتى لأحضرها » ·

ـ لن أسبب له هذا العناء ٠ هل ستكونين هنلك يا مسز فيرفاكس ؟

ـ كلا ٠ لقد رجوته ان يعذرني الليلة ٠ سأقول لك كيف تتجنبين حرج الدخول بشكل رسمي ٠ عليك أن تذهبي الى غرفة الاستقبال وهي خاوية ، قبل أن تغادر السيدات مائدة العشاء ٠ اختاري جلستك في أي ركن هادىء ٠ ولا داعي أن تبقي طويلا بعد قدوم الرجال دعي مستر روتشستر يرى انك موجودة ، ثم تسللي خارجة ، ولن يلاحظك أحد ٠

الفصل التاسع عشر

في غرفة الاستقبال

شعرت بأنني عصبية نوعا ما ، عندما اقتربت الساعة التي على أن اظهر فيها في غرفة الاستقبال . وكانت أديل في حالة فرح طول اليوم ، ولكن عندما بدأ وقت ارتداء ملابسها أصبحت جادة ، وأنا نفسي ارتديت بسرعة أفضل ما لدى « ثوبا رماديا فضيا تم شراؤه لزفاف مس تمبل ، ولم يلبس حتى الآن » . وفردت شعرى .

وجدنا الغرفة خاوية . كانت هناك نار كبيرة تشتعل بالمدفأة وتظهر الشموع بين الزهور الجميلة على

الموائد . وأحضرت أديل كرسيا صـــغيرا بجانبى وبعد فترة لمست ركبتى قائلة :

ــ هل لى أن آخذ واحـدة من هـــذه الزهـور الجميلة ... لأضعها حلية لثوبى !

ــ انك تفكرين كثيرا فى ثوبك ، يا أديل ، ومع ذلك يمكنك أخذ واحدة !

وأخذت وردة وثبتتها فى حزامها . فتنهـــدت بارتياح واشاحت بوجهها جانبا لتخفى ابتسامة .

وبدأنا نسمع صوتا رقيقا لقيامهم من على المائدة ، وسحبت الستارة الفاصلة بين غرفة الاستقبال وغرفة الطعام . وبدأت بعض السيدات تدخلن . فنهضـــت وانحنيت لهن . واحدة أو اثنتين احنين رأسيهما فى المقابل وتطلعت الآخريات فقط الى ..

وانتشرن فى الغرفـة مثل الطيور ، ينظرن الى الكتب والزهور ، ويتحدثن فى صوت منخفض ولكنه واضح ، وفحصتهن بهدوء معطية معظم اهتمامى لعائلة انجرام .. كانت الأم « ليدى انجرام » أمرأة رائعة

الجمال ولكنها تبدو متكبرة بشكل لا يطاق ٠٠ ولهـا عينان ناريتان حادتان تذكرانى بمسز ريد . أما ابنتاها فكانتا فارعتى القوام ٠ وأخذت أنظر باهتمام خاص ، بالطبع ، للابنة الكبرى ٠٠ كم كانت تشبه وصف مسز فيرفاكس والصورة التى كونها لها خيالى ؟

كانت جميلة ، ولكن وجهها كان مثل وجه أمها مع فارق السن ٠٠ كانت تتكلم مع مسز دنت ، سيدة لطيفة ، بطريقة تظهر مهارتها الشخصية ولكن تظهر الأخرى بمظهر الغباء ٠

وفى هذه الأثناء ، تقدمت أديل وحيت الموجودات باللغة الفرنسية ٠ ونظرت مس بلانش انجرام اليها بترفع ٠ وقبلتها مسز دنت بعطف ، أما ايمى ولويزا اشتون فأجلستاها بينهما ، وأخذتا تدللانها على حسب ما تهوى ٠

وأخيرا حضرت القهـوة ونـودى على الرجـال ، وجلست فى ركن منعزل ٠٠ وستارة النافذة تكاد أن تخفينى ٠

وجاء مستر روتشبستر فى النهاية ٠ لم أكن أنظر نحوه لكنى رأيته يدخل ٠ وحاولت أن أحافـظ على انتباهى ٠٠ وتذكرت آخر مرة رأيته فيها ، وكم كنت ملاصقة له وقريبة منه فى تلك اللحظة ٠ ولكن الآن كم نحن بعيدين ! ٠٠ لقد أخذ مقعدا فى الجانب الآخر من الغرفة بدون أن يتطلع لى ٠

وانجذبت عيناى لوجهه ، ضد ارادتى ٠ وأخذت أقارن بينه وبين ضيوفه ٠ لم يكن جميلا ، لكن وجهه الشاحب ، بالجبين الثقيل المربع ، والحاجبين الأسودين العريضين والعينين الغائرتين والفم الحـازم ٠٠٠ كله تصميم وحيوية وارادة ٠٠ كان جل اهتمامى ٠٠ ولم يكن فى نيتى أن أحبه ، لكن أول مرة أراه ثانية ، قهرتنى أحاسيسى ٠ لقد جعلنى أحبه دون أن يتطلع الى٠

رأيت مستر روتشستر يبتسم ٠ كان يتكلم ، فى هـــذه اللحظة ، مع لويزا وايمى اشتون ورأيت باندهاش أنهما تستقبلان نظرته بهدوء ، ولكنى كنت سعيدة ، اذ فكرت :

ـ انه ليس على شاكلتهما وأومن أنه على شاكلتي٠ ورغم أن المركز والثروة تفرق بيننا بشكل واسع ، فلدى شيء في عقلي وفي قلبي مشترك معـه ٠٠ لدى أحاسيس معينة يفهمها هو ٠٠ !

تم تناول القهوة ٠ وأصبحت السـيدات مرحات منذ دخول الرجال ٠ وأخذ الكبار منهم يتجادلون في السياسة بينما زوجاتهم ينصتن ٠ وكان الكل منشغلا ماعدا بلانش انجرام ، التي وقفت وحيده عند المائدة ، وتحركت تجاه مستر روتشستر

وقالت مشيرة الى اديل :

ـ لـماذا ، مستر روتشستر ، تحملت مسئولية شيء صغير كهذه ٠٠ من اين أتيت بها ٠٠ ؟

ـ لقد تركوها لى !

ـ كان يجب أن تبعث بها للمدرسة ٠

ـ لا أقدر على المصاريف ٠ فالمدارس غالية ٠

ـ لماذا ، أظن أن عندك مربية لها ٠ لقد رأيت واحدة معهـا الآن ٠٠ هل ذهبت ؟ أوه كلا ! ها هى

ما زالت ، خلف ستارة النافذة • انها تكلفك طبعا • اعتقد انها نفس الشيء حيث انك تقوم بالنفقة عليهما•

ـ انني لم أبحث الموضوع •

ـ أنتم أيها الرجال لا تفكرون في التوفير مطلقا• يجب أن تسمع مامي وهي تتكلم عن موضوع المربيات • كان لدى أنا وماري نصف دستة على ما أعتقد • كرهنا بعضــهن وســخرن من البعض الآخر • وكن جميعهن مزعجات ••• أليس كذلك ، يا مامي ؟!

ـ لا تذكري المربيات يا عزيزتي • فهذه الكلمة تجعلني عصبية • لقد عانيت الكثير من غبائهن • أشكر السماء أنني تخلصت منهن •

وهنا انحنت مسز دنت عليها وهمست بشيء في اذنها ، مذكرة الليدى ، على ما أعتقد أن واحدة من المهنة المكروهة حاضرة •

فقالت والدة بلانش :

ـ دعيها تسمع ! •

ثم قالت بصوت منخفض ، ولكن بشكل يكفى لسماعه :

ـ لقد لاحظتها ، وأرى فى وجهها كل العيوب التى فى شاكلتها ٠

ـ أوه ، يا ماما ! لا تضجرينا بالوصف ٠ فلنغير الموضـــوع ٠ كيف حال صـــوتك الليلة يا مستر روتشستر ؟

ـ تحت أمرك ، اذا رغبت ٠ ٠

فجلست مس انجرام على البيانو بكبرياء وقالت :
ـ مستر روتشستر ، نحن الآن ، وسأعزف لك ٠
ـ السمع والطاعة !

فكرت فى الانسحاب حيث الظرف ملائم ، لكن الصوت الذى بدأ يشدو جذب انتباهى ٠ كان صوتا جميلا قويا مملـوءا بالأحاسيس ٠٠ وانتظرت حتى خفتت النغمة الأخيرة تماما،ثم تسللت خارجة من الباب الجانبى ٠ وعند عبورى الصالة لاحظت حذائى مفكوكا ، فتوقفت لأربطه ٠

سمعت باب غرفة الاستقبال يفتح ويخرج منها أحد السادة ، فنهضت مسرعة لأجد نفسى واقفه وجها لوجه معه · كان مستر روتشستر ، فقال :

ـ كيف حالك ؟

ـ اننى بخير يا سيدى !

ـ لماذا لم تأت وتتحدثى معى فى الغرفة ؟

وفكرت فى أن أوجه له نفس السؤال ، ولكن لا يصح لى أن أتكلم بهذه الحرية ، فأجبت :

ـ لم أرغب فى ازعاجك حيث كنت مشغولا ·

ـ ماذا كنت تفعلين أثناء غيابى ؟

ـ لا شىء بالتحديد ··· التدريس لأديل كالمعتاد·

ـ وتصبحين أكثر شحوبا على شحوبك · ما هو الموضوع ؟

ـ لا شىء على الاطلاق ، يا سيدى ·

ـ هل أصبت بالبرد تلك الليلة عندما كنت تستخدمين الماء لاطفاء الحريق ·· ؟

ـ كلا .

ـ ارجعي الى غرفة الاستقبال ، انك تغادرين مبكرة جدا .

ـ انني متعبة يا سيدى !

فنظر الى برهة ثم قال :

ـ وغير سعيدة . ما السبب ؟ أخبريني ..

ـ لا شيء ... لا شيء ، يا سيدى ، انني سعيدة.

ـ ولكنك ... سعيدة لدرجة انك بعد كلمات قليلة أخرى ستملأ الدموع عينيك . في الحقيقة أنها موجودة الآن . اذا كان لدى وقت لتحققت من معنى ذلك كله .. حسن ، ساعذرك الليلة ، ولكن طوال وجود زوارى هنا سأتوقع حضورك في غرفة الاستقبال كل ليلة . اذهبي الآن وابعثي بالمربيـة لأديل .. تصبحين على خيريا ..

وتوقف وعض على شفته وتركني مسرعا .. !

الفصل العشرون

قراءة البخت

كانت تلك أياما مرحة فى ثورنفيلد هول وأياما نشطة أيضـا : كم كانت مختلفة عن الشهور الثلاثة الأولى من السكون عديم الأحداث الذى مررت به بين جدرانها ! كانت الحياة تدب فى كل مكان ، والحركة دائبة طوال اليوم . وكانت غرف الاستقبال هادئة فقط عندما ينادى جو الربيع الجميل الضيوف فيخرجون الى الحديقة .

حتى عندما سقط المطر لبضعة أيام ، فلم تسقط أى ظلال على سرورهم ، واستمروا ينعمون بوقتهم بشتى أنواع المسليات .

وفى أحد الأيام طلب مستر روتشستر للذهاب الى ميلكوت فى بعض الأعمال • وكان يوما مبتلا ، ولم يبد على الضيوف معرفة كيف يشغلون أنفسهم ، لانه اذا غـاب حتى لساعة واحدة ، بدا عليهـم الضـياع والاحساس بفقدان مرحهم ••

وبدأت بعض من السيدات الشابات والرجال فى الحديث بشكل متراخ كسول • وقبع الكبار مع ورق اللعب فى هدوء • وثبطت بلانش انجرام كل الجهـود لجذبها فى المشاركة فى الحديث ، ولعبت أولا على أصابع البيانو بعض الأنغام بتكاسل ، ثم أحضرت رواية من المكتبة وغاصت فى أحد الكراسى الوثيرة لقضاء الوقت فى القراءة •

وكان وقت ارتداء الملابس للعشاء • عندما صاحت أديل ، الراكعة بجوارى على مقعد نافذة غرفة الاستقبال ، باللغة الفرنسية قائلة :

ـ ها هو مستر روتشستر •• لقد عاد !

فالتفت واندفعت مس انجرام للأمام لأنه فى نفس

الوقت أمكن سماع صوت العجلات وضجيج الجياد .
وقالت مس انجرام :

ـ لماذا يعود بالبيت فى عربة ؟ لقد غادر على ظهر جواد . اليس كذلك ؟

وعندما تفوهت بذلك ترجل سيد من العربة فى ملابس السفر ، وكان غريبـــا . **فقالت مس انجرام متعجبة :**

ـ ياله من ازعاج !

ثم قالت ، مخاطبة اديل :

ـ وانت ، يا قردة يامتعبة ، من أصـــعدك الى النافذة لاعطاء معلومة زائفة ؟

واعطتنى نظرة غاضبة وكانني الملومة .

ودارت محادثة فى الصالة دخل بعدها الضيف الجديد . فانحنى لليدى انجرام على اعتبارهـــا أكبر الحاضرات ، **وقال :**

— يبدو أنني حضرت في وقت غير ملائم ، وصديقي مستر روتشستر بعيد عن بيته · ولكنني قطعت رحلة طويلة ، وأعتقد أنني ساكون جريئا لأبقى هنا حتى يعود ·

وعلمت بعد ذلك أن اسمه ميسون وأنه عائد من جزر الهند الغربية منذ وقت قريب ، حيث التقى بمستر روتشستر · وكان سلوكه مؤدبا ونطقه غريبا بعض الشيء · وله ملامح عادية · لكن عينه طوافة ، وأسلوبه غير مستقر وتنقصه الحيوية ·

كنت أفكر في ذلك بعد العشاء ، عندما حدث شيء غير متوقع · طلب مستر ميسون ، غير المعتاد على الطقس البارد ، فحما زيادة لوضعه في المدفأة ، ووقف الخادم الذى أحضر الفحم بالقرب من مقعد مستر اشتون وأسر له شيئا · فاجابه هذا السيد قائلا :

— قل لها انها ستعرض نفسها للعقاب اذا لم تذهب ·

فتدخل الكولونيل دنت قائلا :

ـ كلا ... قف ! لا تدعها تذهب ، اشتون ربما تسلى السيدات .

ثم اضاف بصوت مرتفع :

ـ سيداتى ، توجد امراة عجوز فى صالة الخدم .. تطلب السماح لها بالدخول لتخبركن عن حظكن . هل تحبون رؤيتها ؟

فصاحت ليدى انجرام :

ـ بالتأكيد يا كولونيل ، انك لن تشجع هذه المخادعة ؟ أطردها ، بأى شكل فى الحال !

فقال الخادم :

ـ لكنى لا أستطيع حثها على الرحيل يا سيدتى ، فهى تقول انها لن تتحرك حتى تحصل على الاذن بالدخول هنا .

فاستفسرت الآنستان اشتون فى وقت واحد :

ـ ما هو شكلها ؟

– عجوز دميمة بشكل مروع ، سوداء كالفحم تقريبا !

فصرخ احد الشباب :

– انها ساحرة حقيقية ، دعونا نراها بالطبع

فقالت امه :

– يا ابني العزيز ، بماذا تفكر ؟

واضافت ليدى انجرام قائلة :

– لا يمكن أن أسمح بمثل هذا .

فانبرى صوت بلانش وهى تلف بمقعد البيانو **وتلتفت قائلة :**

– فى الحقيقة يا ماما يمكنك .. وستسمحين . لدى فضول أن اسمع حظى . دعى المرأة تدخل .

– بلانش يا حبيبتى ! اعتبرى ...

– أعرف . ولا بد ... أدخلها بسرعة !

وقف الخادم مترددا وقال :

ـ انها تبدو رثة فظة ٠

فردت مس انجرام :

ـ اذهب !

وذهب الرجل وعاد بعد دقيقة وقال :

ـ انها لا تريد أن تدخل الآن ٠ انها تقول يجب أن آخذها الى غرفة لوحدها ٠٠ ومن يرغب فى الحصول على أى معلومات منها يذهب اليها كل بدوره ٠٠

فبدأت ليدى انجرام تقول :

ـ أرأيت الآن ، انها تحتال ، أنصحك يا عزيزتى

فاعترضتها ابنتها قائلة :

ـ ادخلوها الى المكتبة بالطبع ٠

وقال كولونيل دنت :

ـ اعتقد من الأفضل أن القى نظرة عليها قبل أن تذهب أية سيدة من السيدات ٠

وذهب الخادم وعاد مرة أخرى واضاف قائلا وهو يحاول بصعوبة منع نفسه من الابتسام :

ـ انها تقول يا سيدى انهـا لن تستقبل من الرجال ولا من السيدات الا الصغار وغير المتزوجين ٠

فنهضت مس انجرام برزانة وقالت :
ـ سأذهب أنا أولا ٠٠

فكانت صرخة امها الولهانة بها :

ـ أوه ٠ يا روحى ! يا عقلى ! انتظرى ، فكرى فيما تفعلين !

لكن بلانش خرجت من الغرفة بدون كلام ٠

تبع ذلك سكون ٠ وبدت ليدى انجرام يائسة ٠ واعلنت مس مارى بأنها لا تجرؤ على الذهاب ٠ أما ايمى ولويزا فضحكتا بعصبية وظهر عليهمـا الخوف بعض الشيء ٠

ومرت الدقائق ببطء شـديد ٠ خمس عشرة

دقيقة ثم عدها قبل أن يفتح باب المكتبة مرة أخرى وتعود لنا مس انجرام ٠

هل ستضحك ؟ هل ستعتبرها نكتة ؟ والتقت جميع العيون بعينيها فى شغف وفضول ٠ وسارت هى بجمود الى مقعدها وجلست عليه ٠

ـ حسن يا بلانش ؟

ـ ماذا قالت ؟

فاجابت مس انجرام :

ـ مهلا ، مهلا ، يا ناس يا طيبين ٠ لا داعى للاثارة الزائدة ٠ لقد رأيت سيدة عجوز قالت لى ما تقوله العرافات عادة ، وأرضيت خيالى ، هذا كل ما فى الأمر !

واخذت كتابا واضطجعت فى جلستها ورفضت الحديث ولم تقلب الصفحة مطلقا لنصف ساعة ، وامتقع وجهها وازداد استياؤها ٠

اثناء ذلك أعلنت مارى انجرام وايمى ولويزا اشتون بأنهن لا يجرؤن على الذهاب بمفردهن ومع

ذلك يرغبن فى الذهاب • وبعد تبادل عديد من الرسائل عن طريق الخادم أعطت الاذن لثلاثتهن بالذهاب سويا •

لم تكن زيارتهن عادثة كزيارة بلانش انجرام •• سمعنا ضحكات عصبية وصرخات قصيرة من المكتبة ، وبعد حوالى عشرين دقيقة اندفعن فى الغرفة راكضات شبه خائفات •

وصرخن قائلات :

ـ انى متأكدة أن لها قوى غريبة ••• لقد أخبرتنا بأشياء ••• انها تعرف كل شيء عنا • وجلسن مقطوعات النفس على المقاعد المختلفة التى أسرع الرجال باحضارها لهن

ومع مزيد من الاستفسارات ، أعلن أنها أخبرتهن بأشياء قد قلنهـا وفعلنهـا فى طفولتهن ، ووصـفت ممتلكاتهن فى بيوتهن • بل وخمنت أفكارهن ، وهمست فى أذن كل من هن باسم الشخص الذى تحبـه فى العالم •

وهنا توسل السادة الرجال لاعطائهم معلومات أكثر عن النقطة الأخيرة ، ولكنهم حصلوا على نظرات خجولة وضحكات فقط بدلا منها . وحاولت السيدات الكبار تهدئة الصغيرات بينما انخرط ازواجهن فى الضحك .

وبينما كنت أراقب هذا المنظر ، سمعت صوتا بجانبى . فالتفت لأرى الخادم ، الذى قال :

ـ من فضلك يا آنسة ، تعلن السيدة العجوز عن وجود فتاة غير متزوجة أخرى فى الغرفة ، وأقسمت بأنها لن تذهب حتى ترى الجميع . ماذا أقول لها ؟

فاجبت :

ـ أوه ، سأذهب بالتأكيد .

كنت سعيدة بالفرصة لارضاء فضولى . وتسللت خارج الغرفة دون أن يلحظنى أحد ، وأغلق الباب من خلفى بهدوء .

الفصل الحادى والعشرون

العــرافة

بدت المكتبة هادئة تماما عندما دخلتها ، وكانت الساحرة ـ اذا كانت حقا كذلك ـ تجلس على كرسى وثير بجانب المدفأة ٠ كانت ترتدى ما يشبه المعطف الأحمر الفضفاض ملفوفا حولها ، وقبعة واسعة مربوطة الى أسفل بمنديل حول وجهها ٠ وتبدو وكأنهـا تقرأ من كتاب أسود صغير ، وتتمتم بالكلمات لنفسها ، كما تفعل معظم النساء العجائز أثناء القراءة ٠

وبينمـا أنا واقفة على السـجادة أدفىء يـدى ، أحسست بسكينة لم أحسها فى حياتى ٠٠ أغلقت المرأة

كتابها ونظرت الى ببطء . وكانت قبعتها تحجب جزءا من وجهها ، ولكن كان بمكنني أن أرى أن لهـا وجها غريبـا ، وأن لها شعرا غزيرا غير مرتب . والتقت عيناها بعيني بحملقة جسورة ومباشرة ، وقالت بصوت خشن كمظهرها :

ـ حسن وانت تريدين قراءة بختك ؟

ـ أنا لا أهتم به يا أمي ، يمكنك ارضاء نفسك . لكني يجب أن أحذرك فأنني لن أصدقك .

ـ انها نفس الاجابة التي توقعتها منك . لقد سمعتها من خطواتك عند دخولك .

ـ ان لك أذنا لاقطة .

ـ أجل ، وعينا لاقطة وعقلا لاقطا . انى أحتاج اليهم ، وخصوصا عندما أتعامل مع أناس مثلك . لماذا لا ترتعشين ؟

ـ لأني لا أحس بالبرد .

ـ ولماذا لا تشحبين ؟

- لأنني لست مريضة ٠٠
- لماذا لا تسالينى عن بختك ؟
- لأنى لست ساذجة ٠

أطلقت المرأة العجوز ضحكة عالية رفيعة الصوت وأشعلت غليونا أســـود قصيرا ٠٠ وبدأت تدخن ٠ وبعد دقائق فردت جسمها المحنى ورفعت الغليون من شفتيها ، وقالت :

- أنت تحسين بالبرد ومريضة وساذجة ٠

فاجبت :

- اثبتى ذلك ٠

- انك تحسين بالبرد لأنك وحيـــدة ٠ لا شيء يقدح النار التى فيك ٠٠ انك مريضة ، لأن أفضـــل الأحاسيس ، أعلاها وأحلاها ، التى تعطى للرجل بعيدة عنك ٠٠ انك ساذجة ، لانك مهما قاسيت فلن تقتربى منها ، ولن تتحركى خطوة واحدة لتلتقى بها حيث تنتظر من أجلك ٠

ـ لابد أنك قلت ذلك لكل واحدة تعيش فى مثل ظروفى ..

ـ من النادر أن يعيش أى أحد فى نفس ظروفك . اذا عرفتيها ، فان وضعك غير عادى : سعادة قريبة جدا ، أجل . يمكنك الوصول لها .. كل الأمور جاهزة .. حركة واحدة فقط مطلوبة لادراكها !

ـ انني لا أفهم الألغاز .

ـ اذا رغبت أن اتكلم بصراحة أكثر ، أريني كفك .

ـ وتنتظرين بعض المال ، على ما أظن ؟

ـ طبعا .

فاعطيتها شلنا ، فوضعته فى جورب قديم وعقدته ، وقربت وجهها الى يدى ، وقالت :

ـ انها رقيقة جدا . لا أستطيع قراءتها . علاوة على أن الحظ لا يكتب فى اليد بل على الجبين ... فى الوجه ... اركعي ، وارفعي وجهك .

فقلت وانا اطيعها :

ـ آه ! والآن تاتين الى الحقيقة ٠

وحركت النار فصدر لهيب خافت متحرك من الفحم المتاجج وسقط ضوؤه على تماما ٠ ثم قالت بعد ان فحصتني لفترة :

ـ ترى ما هي الأفكار التي تشغل قلبك أثناء هذه الساعات الطوال التي تجلسينها بين أناس منعمين هنــا ٠

ـ أشعر بالتعب غالبا ، ناعسة أحيانا ، ولكن نادرة حزينة ٠

ـ اذن لديك أمل سرى ليساندك ويسرك بهمسات المستقبل ؟

ـ لست أنا ٠ كل ما آمل فيه أن أوفر نقودا كافية لأقيم مدرسة صغيرة خاصة بى فى يوم ما ٠

ـ طعام فقير للروح لتعيش عليه : وتجلسين على مقعد النافذة هنــاك ٠ (ترين ٠٠ انني أعرف عاداتك) ٠٠٠

ـ لقد عرفت ذلك من الخدم

ـ آه ! تظنين نفسك ذكية · حسن ، أقـــول لك الحق ، فعلا أعرف واحدة منهن وهى مسز بوول ··

فقفزت على قدمى وقلت فى نفسى : « تعرفين ·· تعرفين ؟ هناك شىء غريب بخصوص ذلك » ·

وأردفت المخلوقة الغريبة قائلة :

ـ لا تنزعجى ·· يمكنك ان تثقى فى مســـز بوول · انها تحفظ السر · لكن كما كنت أقـــول : جالسة على مقعد النافذة ، ألا تفكرين فى شىء سوى مدرسة المستقبل ؟ ألا يوجد وجه تدرسينه ·· أو ربما وجهان ؟

ـ انى أحب دراسة جميع الوجوه ·

ـ ولكن عندما تجلس سيدة صغيرة وجميلة ومن أصل عريق وتبتسم فى عينى السيد الذى أنت ···
ـ الذى أنا ماذا ؟

ـ الذى انت تعرفيه ··· وربما تفكرين فيه

ــ انني لا أعرف السادة هنا • انني بالكـــاد تكلمت مع قليل منهم •

ــ هل ستقولين ذلك عن سيد المنزل ؟

ــ انه ليس بالبيت •

ــ ولأنه بعيد عن هنا لبضعة ســاعات تقولين اذن انك لا تعرفينه ؟

ــ كلا ، ولكني لا أرى لمستر روتشستر أى دخل بالموضوع •

ــ كنت أتكلم عن سيدات يبتسمن فى عيـــون السادة من الرجال •

ــ من حق مستر روتشستر أن يستمتع بصحبة ضيوفه •

ــ أجل ، لقد جلس مستر روتشستر لساعات وأذنه تجاه هاتين الشفتين مبديا الامتنان للمتعة التى يحس بها •

ــ امتنان ، لا أتذكر ملاحظة أحاسيس امتنان على وجهه •

ـ ملاحظة ! لقد راقبته عن كثب أنئذ · ماذا لاحظت ، ألا توجد أحاسيس امتنان ؟ لقد رأيت حبا · أليس كذلك ؟ ··· وتتطلعين الى المستقبل ، فترينه متزوجا ، وعروسته سعيدة ؟

ـ ليس بالضبط · ان حذق الســـاحرة فيك يخطيء أحيانا ·

ـ ماذا رأيت ، اذن ؟

ـ لا بأس · لقـــد جئت هنـــا لأســـتفسر ، لا لأعتـــرف · هـــل علمت بأن مستر روتشستر سيتزوج ؟

ـ أجل ، الآنسة انجرام الجميلة · لابد أنه يحب مثل هذه السيدة الفاتنة ، وربما هي تحبه ، أو على الأقل تحب ماله · ومع ذلك قلت لها شيئا عن أملاك روتشستر منذ نصف ساعة ، وهذا جعلها تبدو قلقة ·

ـ لـــكن يا أمي ، انك لم تخبريني بشيء عن بختي ·

ـ بختك لازال في موضع شك · عندما فحصت

وجهك ، وجدت أحد الملامح تعد بشيء وأخرى بالنقيض. لقد أتاحت الفرصة قدرا من السعادة لك فى جانب • وعلى نفسك الاعتماد لتمدى يدك لتلتقطيها ، ولكن هل ستفعلين ذلك ••• انها المشكلة التى أدرسها • اركعى ثانية على السجادة •

ـ لا تطيلى ••• فنار المدفأة تلسعنى •

ـ اللهيب يشرف على العـــين ، والعين تشرق بلطف • أنها تبدو رقيقة وجياشة بالشعور ، انهـــا تبتسم على كلماتى ، انهـــا تنفتح لتؤثر • وعندمـــا لا تبتسم فهى حزينة ••• فتبدى ثقل الروح الناتج عن الوحدة • انها تشيح عنى بنظرة ازدراء ••• تبدو رافضة لتقبل الحقيقة عندما اكتشفتها ••• كبرياؤها وتحكمها فى ذاتها يقويانى فى رأيى •• العين مؤيدة ••

أما بالنسبة للفم ، فيفرح أحيانا ويضحك ، وميال للتعبير عن أفكار صاحبته ، ولكنه قد يكون كتوما بخصوص أحاسيسها • انه فم يحتاج للابتسامة والحديث استجابة للحب الانســـانى • انه أيضـــا مؤيد •

ولا أرى عدوا الا فى الجبين ، وهذا الجبين يريد أن يقول : « يمكننى العيش وحدى ، اذا احترام النفس وظروف الحياة حتمت على ذلك · فالرشد يجلس متربعا ولن يسمح للأحاسيس أن تتفجر · قد تحترق العواطف بعنف وتتخيل الرغبات جميع أنواع الأشياء عديمة النفع ، لكن الحكمة ستتغلب على كل نزاع ·

أجدت القول يا جبين ، وبيانك سيحترم : لقد كونت خططى ، وفيها أصغيت لمطالب الضمير ، ويجب على جمع الابتسامات لا الدموع · لكنى قلت ما فيه الكفاية · والى هذا الحد احتفظت بنفسى تحت المراقبة ، ولكن بعد ذلك قد تخضعنى لما وراء قوتى · انهضى مس اير · اتركينى · التمثيلية انتهت ·

أين كنت ؟ هل أنا يقظة أم نائمة ؟ لقد تغير صوت المرأة العجوز · انه الآن مألوف لدى كوجهى نفسه فى المرآة · ونهضت ولكننى لم أذهب · فأشارت الساحرة لى ثانية بأن أذهب · وانعكست النار على ذراعها· كان ذراعا ممتلئا مستديرا غير نحيل وعجوز·

ولمع خاتم عريض فى الاصبع الصغير ··· لقد رأيته مرات كثيرة من قبل ·

وسأل الصوت المألوف :

ـ حسن يا جين ، هل تعرفيننى ؟

ـ انزع هذه الملابس الحمراء فقط ، يا سيدى ، و ···

ـ لكن الخيط معقود ··· ساعدينى !

ـ فكه يا سيدى !

وقال مستر رُوتشستر وهو يخطو خارج ملابسه المستعارة :

ـ ها هو أنا ، اذن ···

ـ والآن ، يا سيدى ، يالها من فكرة غريبة !!!

ـ لكنها جيدة التنفيذ ، أليس كذلك ؟

ـ لابد أنك تدبرت الأمر جيدا مع السيدات ·

ـ لكن أليس معك أيضا ؟

ـ انك لم تمثل شخصية الساحرة معى ٠

ـ اى شخصية مثلت ؟ شخصيتى ؟

ـ كلا ٠ اعتقد انك كنت تحاول أن تجعلنى أتكلم على راحتى ٠٠ لقد كلمتنى أى كلام لتجعلنى أتكلم أى كلام ٠ انها طريقة عادلة الى حد ما ٠

ـ هل تغفرى لى يا جين ؟

ـ لا أستطيع القول حتى أفكر فى الموضوع ٠ وبعد التأمل ، اذا وجدت أنى لم أقل شيئا سخيفا جدا ، سأحاول أن أغفر لك ، لكنه لم يكن عدلا ٠

ـ اوه ، لقد كنت صائبة جدا ٠٠٠ حريصة جدا ٠٠ حساسة جدا ٠٠

وتأملت وفكرت فى كل ما حدث لى ٠ فكانت سلوى ٠ لكن ، فى الحقيقة كنت فى ريبة من بداية الزيارة ، عرفت أن العرافات لا يعبرن عن أنفسهن مثل هذه المرأة العجوز المتظاهرة ٠ ومع ذلك كان عقلى مشغولا بجريس بول ٠ ولم أفكر مطلقا فى مستر روتشستر ٠ وقال :

ـ حسن ، فى أى شىء تفكرين ؟ ماذا تعنى هذه الابتسامة الهادئة ؟

ـ اندهاش وتهنئة نفسية يا سيدى ٠ هل تأذن لى بالذهاب الآن ؟

ـ كلا ، انتظرى لحظة ٠

ـ من الأفضل ألا أبقى طويلا ، يا سيدى ٠ لابد أنها اقتربت من الحادية عشرة أوه ، هل تعلم يا مستر روتشستر ٠٠ أن غريبا وصل هنا بعد مغادرتك فى الصباح ؟

ـ غريب ! اننى لا أتوقع أحدا ٠ هل ذهب ؟

ـ كلا ٠ لقد قال انه يعرفك من زمن ٠ اسـمه ميسون ، وهو قادم من جزر الهند الغربية ، من مدينة أسبانية اسمها جامايكا ، على ما أظن ٠

كان مستر روتشستر واقفا بجوارى ، وقد أخذ يدى وكأنه سيقودنى الى كرسى ٠ وبينما كنت أتكلم قبض على رسغى بعنف، وتيبست الابتسامة على وجهه، وأخذ يتنفس بسرعة ٠ وكرر الكلمات : « ماسون ٠٠٠

جزر الهند الغربية ! ، وأصبح وجهه وهو يتكلم أنصع بياضـــا من الرمـاد • ولم يدر ما الذى يفعله • **فاستفسرت :**

ـ هل تشعر بالتعب يا سيدى ؟

فقال وهو يكاد أن يقع على الأرض :

ـ جين ، لقد صدمت ••• لقد صدمت •• !

ـ أوه ، استند على يا سيدى •

ـ جين ، لقد سمحت لى بأن أستند على كتفك ذات مرة من قبل • دعينى أستند عليه الآن •

وجلس وجعلنى أجلس بجانبه ، **وقال :**

ـ يا صديقتى الصغيرة ! وددت لو كنت على جزيرة هادئة وحدى معك • مع تخلصى من ذكر يـــات المشاكل والخطر والشر •

ـ هل يمكننى مساعدتك يا سيدى ؟

ـ احضرى لى ، يا جين ، كأسا من النبيـذ من غرفة الاستقبال •

ذهبت . فوجدت جميع من فى الحفل على العشاء . فملأت كأسا من النبيذ . ورأيت مس انجرام تراقبنى بشكل مستهجن وأنا أقوم بذلك ... ربما ظنت أنى آخذها لنفسى .

وعندما عدت ، كان الشحوب المفرط لمستر روتشستر قد اختفى ، وبدا عليه ثانية العزم والجدية . أخذ الكأس من يدى ، وابتلع النبيذ وأعاد الكأس لى ، وقال :

– ماذا يفعلون يا جين ؟

– يضحكون ويتكلمون يا سيدى .

– ألم يبد عليهم الوقار والغموض وكأنهم سمعوا شيئا غريبا ؟

– على الاطلاق . انهم يفيضون مرحا .

– وميسون ؟

– انه كان يضحك أيضا .

ـ اذا ابتعد هؤلاء الناس عنى ازدراء ، مــــاذا ستفعلين يا جين ؟ هل تذهبين معهم ؟

ـ بل ، أعتقد لا يا سيدى · لتكون لى المتعــة فى البقاء معك ··

ـ واذا حرموك من المجتمع لمساندتك لى ؟

ـ سأتحمل ذلك من أجل صديقى الذى يستحق مساعدتى ، أنا متأكدة ·

ـ اذهبى الآن ثانية الى غرفة الطعام ، واتجهى بهدوء نحو ميسون ، واهمسى فى أذنه بأن مســــتر روتشستر قد جاء ويرغب فى أن يراه ، واحضريه الى هنا ، ثم اتركينى ·

ـ اجل ، يا سيدى ·

وامتثلت · فحملق الجميع الى وأنا أمر من بينهم فى استقامة ، ثم اتجهت الى ميسون ونفذت التعليمات ·

وفى ساعة متأخرة ، بعد ذهــــابى الى الفراش بفترة ، سمعت صوت مستر روتشستر يقول :

– من هنا يا ميسون . هذه غرفتك . تصبح على خير .

كان يتكلم فى ابتهاج . فأراح صوته المرح قلبى . ونمت فى الحال .. !

الفصل الثانى والعشرون

صرخة فى الليل

لقد نسيت أن أسحب ستارتى ، وعندما جـاء القمر ، الذى كان بدرا سـاطعا ، نظر الى عن طريق النافذة ، فتحت عينى ٠٠ ونهضت قليلا ومددت ذراعى لأسحب الستارة ٠

يا الهى ! يا لها من صرخة !

الليل ٠٠٠ وسكونه ٠٠ وراحته ، قد مـزقه صوت حاد سرى من أول ثورنفيلد هول الى نهايته ٠ ووقف قلبى ساكنا ، وذراعى الممتدة ظلت بلا حركة وماتت الصرخة ٠

لقد جاءت من الطابق الثالث ، فوقى ٠٠ أجـــل فى الغرفة التى فوق رأسى تماما ٠٠ وســـمعت الآن صراعا : صراعا قاتلا كمـا يبدو من الضجة ، وصرخ صوت بلا نفس :

ـ النجدة ! النجدة ! النجدة !

ثم بعد ذلك سمعت نداء :

ـ روتشستر ! لأجل الله تعال لتنقذنى !

انفتح باب ٠٠٠ ركض شخص ما ، أو اندفع على طول الممر ٠ وسقط شيء فوقى ثم سكون بعـــد ذلك ٠

ارتديت بعض الملابس على جسدى المصـــدوم بالرعب ، وتجاسرت وغادرت غرفتى ، وانفتــح باب وراء باب ٠ لقد انزعج كل الضـــيوف ، وانطلقت التعجبات وهمهمات الفزع فى كل مكان ٠ « أوه ، مـا هذا ؟ ٠٠ « من أصيب ؟ » ٠٠٠ « ماذا حدث ؟ » ٠٠٠ « هل يوجد لصوص ؟ » ٠٠

وصرخ الكولونيل دنت :

ـ أين روتشستر ؟ انى لم أجده فى فراشه

وجاءت صيحة فى المقابل

ـ هنا ! هنا ! اهدءوا جميعكم • انى قادم !

انفتح الباب فى نهاية الممر ، وتقدم مستر روتشستر مع شمعة ، لقد نزل من الطابق الثالث ، وركضت احدى السيدات اليه فى الحال • وأمسكت بذراعه •• انها مس انجرام • فصرخ قائلا :

ـ كل شىء بخير ! كل شىء بخير ! انه مجرد لا شىء • السيدات تبتعد •

كانت عيناه السوداوان تومضان ، وأخذ يهدى نفسه بمجهود ، ثم اضاف قائلا :

ـ خادمة كان لديها حلم سىء • هذا كل ما فى الأمر وهى عصبية بطبيعتها سهلة الاثارة . وتخيلت أنها رأت شبحا فاصيبت بنوع من الصرع والفزع • والآن لابد أن أراكم جميعكم ثانية فى غرفكم !

وهكذا نجح بالتحريض والامـــر فى ارجاعهم ليرتاحوا • عدت الى غرفتى لكننى لم أذهب الى الفراش وبدلا من ذلك بدأت أرتدى ملابسى بعناية • فالأصوات التى قد سمعتها بعد الصرخة والكلمات التى قيلت جعلتنى متأكدة أنه ليس حـــلم خـادمة الذى أيقظ المنزل ، وأن التفسير الذى أعطاه مســتر روتشستر مجرد دعوة لتهدئة ضيوفه • فارتديت ملابسى لكى أكون جاهزة اذا احتاج الامر لى ، وجلست مدة طويلة بجوار النافذة •

عاد السكون •• وهدأت كل تمتمة وكل حركة بالتدريج • وفى حوالى نصف ســاعة بدت ثورنفيلد هول نائمة مرة أخرى • كان القمر على وشك الغروب، وفكرت أن أستلقى ثانيــة وانا كمـا أنا بملابسى • وعندما انحنيت لأخلع حذائى قرعت يد حريصة عـلى الباب •

وسألنى الصوت الذى توقعت ان اسمعه :

ــ هل أنت متيقظة ؟

ـ أجل يا سيدى ٠

ـ ومرتدية ملابسك ؟

ـ أجل ٠

ـ تعالى ، اذن ، بسرعة ٠

فامتثلت ٠ ووقف مستر روتشستر فى الممـــر ممسكا بالضوء ، وقال :

ـ أريدك ، تعالى من هنا ٠ لا تسرعى ولا تعملى ضجة ٠

وتحرك فى سكون على طول الممر ثم صعد السلم الى الطابق الثالث ٠ وتبعته ٠٠٠

وأمسك بمفتاح فى يده ، ثم اقترب من احـدى الأبـواب الصغيرة ووضـعه فى القفـل ، ثم توقف هنيهة ٠

ـ انك لا تصابين باعياء عند رؤية الدم ؟ ٠

ـ أعتقد لا ، ولكننى لم أجرب ذلك مطلقا ٠

وادار المفتاح وفتح الباب ٠ فرأيت غرفة أذكر

أننى قد رأيتها من قبل ، يوم أرتنى مسز فيرفاكس المنزل ، ولكن يمكننى الآن رؤية باب داخلى كانْ مخفيا خلف ستارة . كان هذا الباب مفتوحا . وسمعت من الغرفة الخلفية صوتا يشبه الحيوان المفترس تقريبا مثل عراك الكلاب . ووضع مستر روتشستر شمعته جانبا وقال لى :

- انتظرى دقيقة .

وتقدم الى الغرفة الداخلية ، فاعقب دخـوله صوت ضحكة صارخة ، مزعجة فى البداية ، وتنتهى بصوت جريس بوول الشبحى : « ها ! ها ! » .. انها اذن كانت هناك .

وفى لحظة خرج سيدى واغلق الباب ، وقال :

ـ هنا يا جين .

ومشيت حول ساتر الى الجانب الآخر من سرير كبير ، مع ستائر مسحوبة حوله . كان يوجد كرسى ذو مساند قرب السرير ورجل يجلس عليـه مرتديا ملابسه ما عدا الجاكيت . لقد تعرفت على ذى الوجـه

الشاحب الذى يبدو بلا حياة .. الغريب ، ميسون .
ورأيت أيضا قميصه ملطخا بالدم من أحـد الجانبين
ومن ذراعه ، **وقال مستر روتشستر :**

ــ امسكى الشمعة !

فأخذتها ، وأحضر وعاء مملوءا بالماء ، وفتـــح قميص الرجل المجروح ، وبدأ يغسل الدم ، الذى كان يتدفق بسرعة . وفتح مستر ميسون عينيه فى الحال وأخذ يئن . **وسأل :**

ــ هل يوجد خطر فورى ؟

فقال له مستر روتشستر :

ــ كلا ... أنه مجرد جرح . لا تهتم يا رجل ! سأحضر طبيبا لك بنفسى . سيمكنك الرحيـــل فى الصباح .

ثم نادانى :

ــ جين .

ــ سيدى .

– سوف أتركك في هذه الغرفة مع هذا السيد لمدة ساعة أو ربما ساعتين · ســـوف تغسلين الدم عندما يسيل ·· واذا شعر بالضعف ستضعين كوبـا من الماء على شفتيه · سوف لا تتكلمين معه على الاطلاق ·· وانت يا ريتشارد ، ستجازف بحياتك اذا تكلمت معهـــا · واذا انفعلت ، فلن أكون مسـئولا عما قد يحدث ·

وتألم الرجل المسكين مرة أخـــرى · وراقبني مستر روتشستر وأنا أنفذ تعليماته لفترة ، ثم قال :

– تذكرى ·· الكلام ممنوع !

وغادر الغرفة ، ودخلت أنا في شـــعور غريب عندما دار المفتاح في القفل وسمعت صـــوت خطواته وهي تخبو بعيدا ·

هنا في الطابق الثالث ، كنت حبيسة في احدى الغرف ، مع منظر الـدم تحت عيني ، وقاتلة تـكاد تفصلني عنها غرفة واحدة · والباقي يمكنني تحمله· ولكني ارتعشت عند فكرة هجوم جريس بوول علي ·

يجب ان أحتفظ بمكاني مع ذلك ٠ وعـــلى أن انصت وأراقب أيضا ٠ أخذت أتصنت ولكنى لم اسمع طول الليل سوى ثلاثة أصوات ٠٠ وقع أقدام ، همهمة حيوان وأنين انسانى عميق ٠

وازعجتنى أفكارى الشخصية أيضا ٠ أى جريمة كانت هذه ٠٠ ما هذا الغموض الذى تسبب فى الحريق قبل ذلك ، والآن تسبب فى الدم وفى منتصف الليل؟ ٠٠ أى مخلوقة هذه التى فى شكل امرأة عادية وتمتلك صوتا لروح شريرة أحيـانا ولحيوان مفترس أحيـانا أخرى ؟

وهذا الرجـل الذى أنحنى عليـه الآن ، هذا الغريب تماما ٠٠ كيف جاء ليتورط فى هذا الأمــــر المرعب ؟ ٠٠ ما الذى جعله يجد طريقه الى هذا الجزء من المنزل ؟ ٠٠ لماذا رضخ لمطالب مستر روتشستر للتكتـم ؟ ٠٠ ولمـاذا فرض مستر روتشستر هذا التكتم ؟

وصرخت لنفسي :

- متى سيأتي ؟ متى سيأتي ؟

ويمر الليل ببطء ، ومريضي الدامي يئن ، ولا نجدة تأتي .. !

الفصل الثالث والعشرون

نور الصباح

ذبلت الشمعة فى النهاية ، وظهر نور رمادى فى الخارج مشيرا بأن النهار يقترب . وبعـــد فترة سمعت نباح الكلب من بعيد . فعاد الأمل .

وبعد خمس دقائق ، دخل مستر روتشستر ومعه الطبيب الذى أحضره .

وقال له :

ـ والآن يا كارتر ، كن سريعا ، امنحك نصـف ساعة فقط لمعالجة الجرح وربطه وانزال المريض الى تحت .

ـ لكن هل هو قادر على الحركة يا سيدى ؟

ـ أجل ، أجل · لا شىء خطـــير · انه عصبى ، ويحتاج لتشجيع · تعال ، ابدأ العمل ·

واقترب من ميسون ، وسأله :

ـ والآن ، يا عزيزى ، كيف حالك ؟

فكانت الاجابة الخافتة كالآتى :

ـ لقد أجهزت على ·

ـ تشجع ! لقد فقدت قليلا من الدم ، هذا كل شىء · كارتر اخبره بانه لا يوجد خطر ·

فقال الطبيب :

ـ سأفعل ما يمليه ضميرى · لكنى كنت أود لو حضرت قبل الآن · ولكن كيف حدث هذا الجرح عـلى الكتف لم يتم بسكين ، توجد آثار أسنان هنا ·

فتمتم ميسون قائلا :

ـ لقد عضتنى · لقد هاجمتنى مثل القطـــة

المتوحشة ، عندما حصل روتشستر على السكين منها٠ لم أتوقع ذلك ٠٠ كانت تبدو هادئة جدا فى البداية٠٠

فرد صديقه عليه :

ـ لقد حذرتك ٠ لقد قلت لك أن تكون حريصا عندما اقتربت منها ٠ علاوة على أنك كان يجب أن تنتظر الى الغد لأكون معك !

ـ لقد ظننت أننى قد أستطيع أن أعمل شيئا طيبا ٠

ـ ظننت ! ظننت ! اجل ، ان صبرى ينفد عندما أسـمعك ٠ ومع ذلك ، لقـد عانيت لأنك لم تأخذ بنصـيحتى ٠٠ كارتـر ، أسرع ! أسرع ! ستشرق الشمس فى الحال ، ويجب أن أدعه يرحل من هنا ٠

ـ حالا يا سيدى لكن يجب أن اكشف عـلى الجرح الآخر فى الذراع ٠ لقد غرست أسنانها هنا ، أيضا ٠

فقال ميسون :

ـ لقد امتصت الدم · لقد قالت ستصفى قلبى

رأيت تعبيرا قويا بشكل خاص عن القرف والرعب والكراهية يرتسم على وجـــه مســـتر روتشستر **ولكنه قال فقط :**

ـ تعال وتحل بالصمت يا ريتشــارد ولا تعبأ بتخريفها ، ولا تكرره ·

ثم أردف قائلا وهو يلتف الى :

ـ جين ، خذى هذا المفتاح ، وانزلى الى غـــرفة نومى ، وأحضرى قميصا نظيفا ، ثم اذهبى الى غرفة مستر ميسون لتحضرى الجاكيت ·

فاطعته ، وفى فترة وجيزة ارتدى الرجل الجريح ملابسه ووقف على قدميه · وكانت الساعة قد وصلت الخامسة والنصف · وبدأ يمشى بسهولة بمســاعدة مستر روتشستر والطبيب ، ونزل على السلم بأقـل ضجة ممكنة · وكانت العربة تنتظر فى الخــارج ·

وقال مستر روتشستر عندما تبع كارتر وميسون الى العربة :

ــ اعتنى به ، واحتفظ به فى منزلك حتى يصبح معافى تماما ٠٠ مع السلامة يا ريتشارد ٠

ــ روتشستر ٠٠

ــ ماذا ؟

ــ دعهم يهتمون بها ٠٠ دعهم يعاملونها بلطف ٠ دعهم ٠٠

وتوقف وانفجر فى البكاء ٠٠ فقال له مستر روتشستر :

ــ اننى أفعل ما فى وسعى ، وكذلك كنت ، وسأكون ٠

ثم أغلق الباب وانطلقت العربة بعيدا ٠ واضاف قائلا :

ــ أود من الله أن ينهي كل هذا !

وتحرك بخطوات بطيئة تجاه باب فى الجدار الذى يحد حديقة الفواكه ، وفتحه ووقف ينتظرنى ، وقال :

– جين ، تعالى هنا حيث بعض النقاوة للحظات ٠ هذا المنزل مجرد سجن ألا تشعرين به هكذا ؟

– بالنسبة لى يبدو مكانا رائعا يا سيدى ٠

فقال :

– سحر عدم الخبرة فوق عينيك ٠ والآن هنا كل شىء حقيقى ، حلو ونقى ٠

وأشار الى التحويطة الخضراء التى دخلناها ، ثم سار فى ممر محفوف بجميع أنواع الزهور النضرة الجميلة على قدر ما يمكن لصباح الربيع أن يهيىء ذلك ٠ وكانت الشمس قد بدأت تظهر ، فسقط نورها على الأشجار والممرات التى من تحتها ٠

– جين ، هل لك فى زهرة ؟

وقطف وردة شبه مفتوحة ، وقدمها لى قائلا :

ـ لقد مررت بليلة غريبة يا جين وجعلتك تبدين شاحبة . هل خفت عندما تركتك لوحدك مع ميسون ؟

ـ لقد خفت من أحد يخرج من الغرفة الداخلية .

ـ ولكنى أغلقت الباب بالمفتـــاح . وكنت فى مأمن .

ـ هـــل ســـتظل جريس بوول تعيش هنا ، يا سيدى ؟

ـ أوه ، أجل ! لا تشغلى بالك بها .

ـ ومع ذلك ، يبدو لى أن حياتك غير مأمونة مع بقائها .

ـ لا تخافي ... سآخذ حذرى .

ـ هل الخطر الذى خفت منه الليلة الماضية زال الآن يا سيدى ؟

ـ لا يمكننى أن أجـــزم حتى يغـــادر ميسون انجلترا ، ولا حتى عندئذ .

ـ لكن يبدو أن ميسون سهل الانقياد . فتأثيرك

عليه يا سيدى قوى بشكل واضح ٠ فلن يؤذيك متعمدا أبدا ٠

فضحك مستر روتشستر بمرارة وأخـــذ يدى بسرعة ، وبسرعة أيضا القى بها ثم قال :

ـ أوه ، كلا ! انه لن يعصانى ٠٠٠ لكن بدون قصد قد يتسبب ، فى لحظة بسبب كلمة طائشة فى أن افقد حياتى بل أفقد فرصتى الوحيدة فى السعادة ٠ يجب أن ابعده عن اكتشاف امكانيـــة ايذائى بهـــذا الشكل . والآن ، بدت عليك الآن الحيرة وساحيرك أكثر . انت صديقتى الصغيرة ، أليس كذلك ؟

ـ أحب أن أخدمك يا سيدى ، وأطيعك فى كل ما هو صواب ٠

ـ بالضبط ، وأرى أنك تفعلين ٠ كما أرى رضاء مخلصا فى وجهك عندما تساعديننى فيما تسميه «فى كل ما هـــو صـــواب » ٠ ولكن اذا قلت لك أن تفعلى ما تعتقدين أنه خطأ ، فستلتفت صديقتى عندئذ نحوى هادئة شاحبة وتقول : « كلا يا سيدى ، هذا مستحيل »

.. حسن ، انت أيضا لك سلطة على ، وقد تؤذينى ولا أجرؤ أن أظهر مكانى الضعيف ، خوفا من أنك قد تضرينى فى الحال ، بالرغم من أنك مخلصة وصدوقة .

ـ اذا لم يكن لديك ما تخافة من مستر ميسون اكثر مما تخافه منى يا سيدى ، فانت فى أمان تماما .

ـ فليسمح الله أن يكون الأمر هكذا ! هـــاك يا جين مقعدا . انك لا تترددين فى أن تأخذى مقعـــدا بجانبى ، اليس كذلك ؟

فشـــعرت أنه ليس من الكياســـة أن ارفض ، واضاف قائلا :

ـ حسن ، يا جين ، سأسألك النصيحة . لنفرض انك لست فتـــاة صـــغيرة حسنة التربية ، بل ولد متوحش ، مدلل منذ طفولته . تخيلى نفسك فى بلدة أجنبية بعيدة .. لنفرض انك هناك اقترفت غلطـــة خطيرة ، غلطة ستتبعك نتائجها طـــوال حيـــاتك .. تذكرى ، أنا لا أقول جريمة . ان كلمتى « غلطة » . وتصبح الحياة مرة وبائسة . فتتجولين هنا وهناك ،

تحاولين أن تجدى السعادة فى المتعة الكسولة . وتعودين للوطن بعد سنوات عديدة متعبة مستاءة ... فتقابلين شخصا ما مختلفا . وتجدين فى هذا الغريب الخصال الطيبة الذكية التى كنت تبحثين عنها دون جدوى مدة عشرين سنة . وتشعرين بأحاسيس أنقى تعود اليك ، وترغبين فى بدء حياة جديدة .. ولكى تفعلى ذلك ، هل تكونين على صواب فى التغاضى عن عرف لا يقبلـه ضميرك ولا توافق عليه حكمتك ؟ هل من الصـــواب أن تتحدى رأى العالم لكى تربطى نفسك الى الأبد مع هذا الغريب اللطيف ؟

وتوقف منتظرا اجابة ، وماذا كان على أن أقول ؟ أوه ، فلتهل روح طيبة لتقترح اجابة حكيمة مرضية ، واجبت :

– سيدى ، لا يجب أن يعتمد تحسن انســـان كلية على كائن آخر . بل يجب أن يتطلع الى أعلى من قرنائه كقوة تقوده الى حياة أفضل .

– لكن الوسيلة ! أن الله الذى قام بالعمـــل

اختار الأداة ··· الواسطة ··· الوسيلة ··· واعتقد اننى وجدت الوسيلة لعلاجى فى ···

وترقف ··· واخذت الطيور تغرد وأوراق الشجر تتمايل . وأخيرا نظرت الى محدثى · كان ينظر الى بشغف ·· وقال فى صوت متغير تماما ، وتغير وجهه أيضا ، فاقدا كل رقته ، وأصبح جامدا ومزدريا :

ـ صديقتى الصغيرة ··· لقد لاحظت شعورى الرقيق نحو مس انجرام · ألا تعتقدين اذا تزوجتهـا ستجعلنى أفضل حالا ·· ؟

ونهض فى الحال ، وذهب الى الطرف الآخر من الممر ، وعندما عاد كان يصفر لحنا ··

ـ انها شخصية نادرة ، أليس كذلك ، يا جين ؟

ـ أجل ، سيدى ·

ـ جمال حقيقى ، يا جين ··· عجبا ، كولونيل دنت ولين فى الحديقة · ارجعى الى المنزل من هـــذا الباب الجانبى ·

وبينما ذهبت أنا فى طريق ، ذهب هو فى طريق آخر ، وسمعته يقول لضيوفه بمرح :

ـ ميسون استيقظ قبلكم هذا الصباح · ولقد ذهب قبل شروق الشمس · لقد استيقظت فى الرابعة لأقوم بتوديعه ··

الفصل الرابع والعشرون

أخبار من جيتسهيد

وبعد ظهر نفس اليوم ، نادوني الى الطابق السفلي لأن شخصا ما يريدني في غرفة مسز فيرفاكس · وهناك وجدت رجلا له مظهر خادم لأحد السادة مرتديا ملابس سوداء ، وقال ناهضا عند دخولي :

ــ أتوقع ألا تذكريني يا آنسة ، ولكني كنت سائق العربة عند مسز ريد عندما كنت في جيتسهيد ومازلت أعيش هناك ·

ــ أوه ، كيف حالك ؟ انني أتذكرك جيــــدا · وكيف حال بيسي ؟ لقد تزوجت بيسي ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، زوجتى · انها بخير ، شكرا لك ·

ـ وهل العائلة بخير فى المنزل ·

ـ آسف لا أستطيع ان أعطيك اخبارا حسنة يا آنسة ·· لقد توفى مستر جون منذ أسبوع فى لندن ·

ـ مستر جون ؟

ـ أجل · كانت حياته متطرفة جدا · لقد استدان كثيرا ثم دخل السجن ·· وساعدته والدته مرتين ، ولكنها رفضت فى المرة الثالثة ، والخبر الذى تلا ذلك كان خبر وفاته · يقولون أنه قتل نفسه !

لذت بالصمت ، كان الخبر مزعجا ، واستمر سائق العربة قائلا :

ـ وكانت السيدة نفسها فى صحة سيئة لفترة من الوقت · ولقد أزعجها فقدان المال والخوف من الفقر · وكانت صدمة وفاة مستر جون فجائية ·· فمرضت وظلت ثلاثة أيام بلا كلام ، ولكن الثلاثاء

الماضى بدا عليها التحسن وأخذت تشير لبيسى وتتمتم .. وفهمت زوجتى أخيرا الكلمات : « أحضروا جين اير . اريد أن أتحدث اليها ! » .. فأخبرت الآنسة اليزا والآنسة جيورجيانا ونصحتهما أن يبعثانى لك ، وأخيرا وافقتا . اذا امكنك أن تكونى جاهزة يا آنسة ، فاود أن آخذك معى مبكرا فى صباح الغد !

ـ أجل ، ساكون جاهزة . يبدو لى أننى يجب أن اذهب .

وبعد أن وجهته الى صالة الخدم ، ذهبت باحثة عن مستر روتشستر . كان يقوم بكرم الوفادة لضيوفه . ويحتاج الموقف منى لبعض الشجاعة فى ازعاج الجماعة ، لكن ظروفى كانت عاجلة .. فاقتربت من السيد حيث كان يقف بجانب مس انجرام . فالتفتت عندما اقتربت ، وعندما قلت فى صوت منخفض : « مستر روتشستر » قامت بحركة كأنها تنوى أن تأمرنى بالابتعاد .

تبعنى مستر روتشستر خارج الغرفة ، وقال وهو يستند على باب غرفة الدراسة الذى أغلقه :

ـ حسن يا جين ؟

ـ من فضلك يا سيدى ، اريد اذنا بالغيـــاب لمدة أسبوع أو اثنين .

ـ لماذا ؟ أين تذهبين ؟

ـ لأرى سيدة مريضة ، زوجـــة خـــالى ، فى جيتسهيد . لقد بعثت لى .

ـ وما الفائدة التى يمكنك أن تفعليها لها .. هراء يا جين ! .. انا لا أفكر مطلقا فى أن تركضى مئات الأميال لترى انسانة ما من المحتمل أن تموت قبل أن تصلى اليها .

ـ لن يرتاح عقلى ، اذا أهملت رغباتها .

ـ عدينى أن تبقى أسبوعا واحدا فقط .

ـ من الأفضل ألا أعطى كلمة ، فربما أجبر على الاخلال بها .

ـ لكنك ستعودين ثانيـــة ؟ ولن تغويك لتبقى معها بصفة دائمة ؟

ـ أوه ، كلا ! ساعود بالتاكيد اذا كانت الأمور بخير ٠

ـ حسن ، لابد أن معك بعض النقود ٠ لم اعطك مرتبك بعد ٠٠ كم معك من حطام الدنيا ، يا جين ؟

فاخرجت محفظتي وقلت :

ـ خمسة شلنات يا سيدى ٠

فضحك وبحث في جيوبه وقال وهو يقدم لي خمسين جنيها في ورقة نقد واحدة :

ـ آه ٠٠ ها هي !

فقلت له اني لا أستطيع أن أفك هذه الورقة النقدية الكبيرة ٠ فقال على الفور :

ـ لا أريد أن أفكها ٠٠ تعرفين ذلك ٠ خذى حقك !

فرفضت أن أقبل أكثر مما أستحق ٠ فهو مدين لي بخمسة عشر جنيها فقط ٠٠ فنظر غاضبا في البداية ٠ ثم قال وكأنه تذكر شيئا :

ـ تمام ! تمام ! من الأفضل الا أعطيها لك كلها الآن · فقد تجعلك تبقين هناك ثلاثة شهور · اليـك بعشرة جنيهات · هذا كاف ، أليس كذلك ؟

ـ أجل يا سيدى ، ولكنك الآن مدين لى بخمسة جنيهات ··

ـ عودى من أجلها ·

ـ مستر روتشستر ، يعن لى ان أذكر مســألة أخرى خاصة بالعمل طالمـا أن لدى هذه الفرصة ·

ـ خاصة بالعمل ؟ أحب أن أسمع ذلك ·

ـ لقد ابلغتنى يا سيدى ، بأنك ستتزوج قريبا · فى هذه الحالة يا سيدى ، يجب الحاق أديل بمدرسة ·

ـ لأبعدها عن طريق عروستى ؟ وأنت ؟

ـ يجب أن أجد وظيفة أخرى فى مكان ما ·· يجب أن أعلن عن البحث عن وظيفة ·· !

فقال مع حدة فى الصوت والتواء فى ملامحه :

ـ طبعا ! ·· يمكنك أن تعلنى ! ·· ياليتنى

قدمت لك جنيها واحدا بدلا من عشرة ٠٠ أرجعى لى تسعة جنيهات ، جين ، انى أحتاج لهم ٠

فاجبت واضعة يدى ومحفظتى خلف ظهرى :

ـ وأنا أيضا يا سيدى ٠

فقال :

ـ يالك من بخيلة ! اعطينى خمسة جنيهات يا جين !

ـ ولا خمسة شلنات يا سيدى ولا خمسة بنسات ٠

ـ اذن دعينى ألقى نظرة على النقود ٠

ـ كلا يا سيدى ، انك لا تؤتمن ٠

ـ جين !

ـ سيدى ؟

ـ عدينى الا تعلنى عن البحث عن وظيفة ، وأن تتركى لى موضوع الحصول على وظيفة لك ٠

ـ سأكون سعيدة بذلك يا سيدى ، اذا وعدتنى

بدورك أن أديل وأنا سنكون فى أمان خارج المنزل قبل أن تدخله عروسك .

ـ حسن جدا ! ستذهبين غدا ، اذن ؟

ـ أجل يا سيدى مبكرا .

ـ اذن يجب انت وأنا أن نعلن وداعنا لفتـــرة قصيرة ؟

ـ أظن ذلك يا سيدى .

ـ وكيف تؤدى النـــاس طقوس هذا الفراق ؟ علمينى يا جين !

ـ يقولون « مع السلامة » أو أى تعبير آخــر يفضلونه .

ـ اذن قوليها .

ـ مع السلامة يـــا مســـتر روتشستر ، والى لقــاء ..

ـ تبدو جافة بالنسبة لى ، وغير ودية . احــب شيئا آخر . اذا صافح الناس بعضهم ، مثلا ، لــكن لا ... هذا لن يقنعنى أيضا .

فسألت نفسي :

– الى متى سيقف وظهره على الباب ؟ اننى أريد ترتيب حقائبى !

ودق جرس العشاء فاندفع مبتعدا بدون كلمـة خرى ..

الفصل الخامس والعشرون

سر مسز ريد

وصلت جيتسهيد حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وذهبت أولا لأرى بيسى ، التى أصرت على أن أتناول الشاى معها ٠٠ وتزاحمت ذكريات الأيام السالفة فى عقلى ، عندما راقبتها وهى تتحرك فى بيتها ، معطية أطفالها من حين لآخر ضربة أو دفعة تماما كما اعتادت أن تعطينى مثل تلك الضربات فى الأيام السالفة ٠ ومازالت سريعة الانفعال ، جميلة المنظر ٠

وبعد نصف ساعة تقريبا مشيت معها تجاه المنزل الذى تركته ، منذ تسع سنوات يائسة وحيدة ، يائسة القلب مجهولة المستقبل ٠٠ وقالت بيسى :

ـ ستذهبين الى غرفة الافطار أولا ·· الفتاتان ستكونان هناك ·

وفى دقيقة أخرى ، كنت داخل هذه الغرفـــة ، حيث توجد كل قطعة أثاث هى نفسها كما كانت فى صباح اليوم الذى قدمت فيه لمستر بروكلهرسنت · حتى السجادة التى وقف عليها مازالت موضوعة أمام المدفأة · ونظرت الى أرفف الكتب ، فوجدت « رحلات جليفر » فى مكانها القديم على الرف الثالث ·

أما الأشخاص ، فلقد تغيروا كثيرا لدرجة اننى لم أتعرف عليهم · وظهرت فتاتان أمامى · واحدة كانت طويلة جدا ونحيفة ولها تعبير صارم وترتدى ثوبـــا بسيطا للغاية · هذه هى اليزا ··· أمـــا الأخـــرى الشقراء ، جميلة المنظر ذات الملامح العـادية والعيون الزرقاء فكانت جيورجيانا ·

وعندما تقدمت نهضتا للترحيب بى ، وبعد التحية لم تعيرانى أى انتباه ، فيما عدا أن الصغرى أخـــذت تتفحص نوعية ملابسى البسيطة غير المتمشية مع الذوق الحديث بعين ناقدة ·

لم يعد لاستخفافهما أية قدرة على ايذائى ولما أبديتا عدم الرغبة فى رؤيتى لأمهما ، ذهبت فورا بدون سؤالهما ٠

لم أكن فى حاجة لدليل للغرفة التى أعرفها جيدا ، والتى كثيرا ما دعيت اليها لأتلقى العقاب فى سابق الأيام ٠ واقتربت من السرير ونظرت بشغف للملامح المألوفة ٠ انه شيء سعيد أن تنتهى هذه المرة الرغبة فى الانتقام وتخمد أحاسيس الغضب والكراهية ٠٠ وانحنيت وقبلت خالتى : فرفعت بصرها الى وقالت :

ـ أنت جين اير ؟

ـ أجل يا خالة ريد ٠ كيف حالك ، خالتى العزيزة ؟

كنت قد أقسمت ذات مرة الا أدعوها خالتى مرة أخرى ٠ لكنى فكرت بأنه ليس من المخجل نسيان ذلك الآن ٠ ووضعت أصابعى على يدها الممتدة فوق الملاءة ، ولكنها سحبت يدها بعيدا ، وأشاحت بوجهها عنى ٠

فشعرت بالألم ثم بالحنق .. وسالت دموعى تماما كما كنت فى طفولتى ، ولكنى تماسكت وقلت :

ـ لقد بعثت فى طلبى ، فجئت !

ـ أوه ، طبعا ! أقول لبناتى أود أن تبقين حتى استطيع ان أكلمك عن شىء يضجرنى . هنـاك شىء رغبت فى قوله ... دعينى أفكر ...

تدل النظرة التائهة والصوت الغريب على التغيير الذى حدث فى شكلها ، هى التى كانت فى صحـــة وعافية فى يوم ما . ووجدت ، وهى تلتفت فى قلق ، ذراعى مرتاحة على ركن الملاءة . فقالت :

ـ اجلسى ، ولا تضايقينى بشـد الملاءة . هل أنت جين اير ؟!

ـ انا جين اير !

ـ لقد سببت لى هذه الطفلة ازعاجا لا يتصوره أحد .. كانت شيئا غير مقبول فتركوه فى رعايتى ! لقد سعدت عندما تخلصت منها وغادرت منزلى .. تفشت

الحمى في لوود ، ولم تمت ٠٠ ولكنى قلت انهـــا ماتت ٠ تمنيت أن تكون ماتت !

ـ لماذا تكرهينها هكذا يا مسز ريد ؟

ـ كنت أكن لأمها الكراهية ٠ كان زوجي مغرما بأخته فارسل وراء طفلتها عندما ماتت ٠ كانت شيئا ضعيفا ، دائم البكاء ٠ واعتاد زوجي أن يلاحظها أكثر من أولاده هو ٠ وكان يغضب منهم من أولاده عندمـــا لا يلعبون معها ٠٠ وجعلني أقطع على نفسي عهدا بأن أعتني بها ٠٠ جون لا يشبه أباه ، وأنا سعيدة بذلك ٠ أوه ، أود لو يتوقف عن طلب نقود مني ! جون ينفق بشكل مـــرعب على ورق اللعب ٠ ودائمـــا يخسر ، المسكين ! عندي هموم ثقيلة ٠ ما العمل ؟

وبعد ذلك بدأت تتهيج وتضطرب ٠ فحثتها بيسى بصعوبة على تناول بعض الأدوية ٠٠ فأصبحت أهدأ ، وخرجت من حجرتها ٠٠

ومضى أكثر من عشرة أيام قبل أن أحصل على حديث آخر معها ٠٠ وكانت صحبتي مع بنات خـالي

لا ترضيني الا الشيء النزير ، ولكن كان معى أدوات الرسم فشغلت بها وقتى ٠

وبعد فترة ، فرحت جيورجيانا برسمى صورة لها ، وأسرت لى بأمور الحب المختلفة التى استمتعت بها فى لندن منذ سنتين ٠ وكانت اليزا تتحدث قليلا ، لكنها كثيرا ما تتشاجر مع أختها ٠

وبعد ظهر أحد الأيام المبتلة العاصفة ، سقطت جيورجيانا نائمة فوق رواية كانت تقرأها ٠٠ وذهبت اليزا الى الكنيسة ٠٠ فكرت أن أصعد للطابق العلوى وأرى كيف حال السيدة التى تنازع الموت ، التى ترقد هناك شبه مهملة حيث كان الخدم والممرضة لا يعتنون بها عناية كافية، كما كانت ابنتاها لا تهتمان، بالاضافة الى أن بيسى كانت مشغولة بأسرتها ٠ ووجدت غرفة المريضة بدون اشراف ، كما توقعت ٠

ظلت المريضة ساكنة ، ونظرت طويلا اليها ٠٠ وتذكرت هيلين بيرنز ، وأنصت فى خيالى الى صوتها المحبب وهى تقول كلماتها الأخيرة لى ، عندما جاءت همهمة ضعيفة من السرير :

ـ من هذا ؟

فاجبت ، ولكن مضت فترة قبل أن تتعرف على مسز ريد • وقالت بعد مدة :

ـ انني مريضه جدا الآن • من الأفضل أن أريح عقلى قبل أن أموت • الشىء الذى نفكر فيه قليلا ونحن فى صحتنا ، يزعجنا فى مثل هذه الساعة ، كما حدث لى • هل يوجد أحد آخر هنا ؟

فاخبرتها باننا بمفردنا فقالت :

ـ حسن ، لقد أخطأت فى حقك مرتين ، الشىء الذى آسف عليه الآن • مرة عندما حنثت بوعدى لزوجى بأن أربيك كابنتى • ومرة أخرى ...

وتوقفت ، ثم تمتمت لنفسها :

ـ على كل ، انها ليست ذات أهمية ، على ما أظن ... وعندئذ قد أتحسن ... كم من المؤلم أن أبدى خجلى منها ..

وقامت بمحاولة لتتحرك ، ولكنها فشلت ، وتغير وجهها وهى تقول :

ـ حسن ، يجب أن أفعل ذلك ۰ من الافضـل أن أخبرها ۰ اذهبى الى مكتبى ، افتحيه ؛ وأحضرى الرسالة التى ستجدينها هناك !

فاطعت تعليماتها ، ثم قالت :

ـ اقرئى الرسالة !

كانت رسالة موجزة كالتالى :

مـــدام ۰۰

هل لك ان تتفضلى بان تبعثى لى بعنوان ابنة اخى جين اير ، وأن تخبرينى كيف حالها ؟ ان قصدى أن أكتب لها قريبا واطلب منها لتاتى وتعيش معى هنـــا فى ماديرا ۰۰ فالله قد بارك لى فى عملى بالنجاح ، حيث انني غير متزوج وليس لى اطفال ، ارغب فى ان اتبناها وأترك لها عند وفاتى كل ما فى حوزتى ۰۰

انني يامدام
المخلص لك
جون اير ۰

كانت مؤرخة منذ ثلاث سنوات مضت . فسألت :

ـ لماذا لم أسمع بذلك مطلقا .

ـ لأنى كرهتك بعمق شـديد . لم أستطع أن أنسى كيف اتهمتينى بالقسوة ذات مرة ، وأخبرتينى انك تكرهينى أكثر من أى شيء فى العالم ، فانتقمت وكتبت لعمك أخبره أن جين اير قد ماتت بالحمى فى لوود ... والآن افعلى ما يحلو لك !

فقلت :

ـ عزيزتى مسز ريد ، لا تفكرى فى هذا الأمـر أكثر من ذلك . سامحينى للغتى الانفعالية ، لقد كنت طفلة عندئذ .

فاجابت :

ـ كانت لك طبيعة سيئة . وحتى الآن أجد من المستحيل أن أفهم كيف تكونين صبورة لمدة تسـع سنوات تحت أى ظروف .

ـ اننى لست سيئة جدا كما تظنين . ففى أوقات

كثيرة ، كطفلة ، كنت سأسعد بحبك لو كنت سمحت لى ٠٠ قبلينى يا خالتى !

وقربت وجهى الى شفتيها ، فلم تلمسهما ٠ واخذت يداها تبردان ودخلت بيسى ، وانتظرت مدة نصف ساعة ، ولكنها لم تتحرك ٠ وفى تمام الساعة الثانية عشرة فى تلك الليلة ، ماتت ٠٠

الفصل السادس والعشرون

العودة الى ثورنفيلد

لقد منحني مستر روتشستر أجازة لمدة أسبوع واحد فقط ، ولكن مضى الآن شهر قبل أن أترك جيتسهيد . رغبت أن أذهب فورا بعد الجنازة ، لكن ابنتى خالى حثتانى على البقاء حتى تكملا ترتيباتهما للرحيل ، فسوف تذهب جيورجيانا الى بيت عمها فى لندن ، حيث تزوجت فيما بعد بقليل ، وستذهب اليزا الى منزل دينى فى فرنسا ، حيث أصبحت راهبة بعد ذلك .

بدت رحلتى طويلة جدا ، وكان عقلى غير مرتاح .

كنت عائدة الى ثورنفيلد ، ولـــكن الى متى ســـأبقى هناك ؟ ٠٠ لقد سمعت من مسز فيرفاكس أن الضيوف قد رحلوا ، وأن مستر روتشستر قد غادر الى لندن ، ليعـــد الترتيبات لزفافه حيث كان يتحـدث عن شراء عربة جديدة ، ومن المتوقع عودته قريبا ٠

لم أخـــبر مسز فيرفاكس التـــاريخ المضبوط لعودتي ، حيث كنت لا أرغب أن تلقاني العـــربة في ميلكوت ٠ ومشيت المسافة بنفسي بهدوء ، سالكـــة الطريق القديم عبر الحقول ٠ كانت أمسية صـــيف معتدلة ، وكان صناع القش يعملون على طول الطريق ٠

ومشيت حتى بقى حقـــل أو حقلان أعبرهـــا فاصبحت قريبة من البيت ٠٠ كانت الشجيرات مليئة بالورد البرى ، ولكن لم يكن عندى وقت لقطفها ٠ كنت أريد أن أصل المنزل بسرعـــة ٠ ومـــررت على شجيرة طويلة ، ورأيت المرقى مع السلالم الحجرية ، ورأيت مستر روتشستر جالسا هناك وكان يمسك فى يده كتابا وقلما ، وكان يكتب ٠٠

فى هذه الحظة لم أعد قادرة على الحركة ٠ ولم

أكن افكر بأن أرتعد بهذه الطريقة عندما رأيته ، ولا أن أفقد صوتي في حضوره · وأردت العودة وأدخل المنزل عن طريق آخر ··· ولكنى لم أستطع التحرك · وأصبح ذلك لا فائدة منه ، لانه رآني · وصاح وهو يضع كتابه وقلمه جانبا :

– آه ! هذا انت ! تعالى ، اذا سمحت !

فذهبت باذلة ما في وسعي أن أظهر هادئة ·

– وهل هذه جين اير ؟ هل أتيت من ميلكوت سيرا على الاقدام ؟ اجل ··· انها احدى خدعك ، أن تأتي الى بيتك بهدوء عند الشفق كما لو كنت حلمـــا أو روحا ··· ماذا كنت تفعلين في هذا الشهر ؟

– لقد كنت مع خالتي يا سيدى، التي توفيت··

– اجابة خاصة بجين حقا ! فلتحرسيني أيتها الأرواح الطيبة ! انها تأتي من العالم الآخر ··· من أرض الموت ! هل اتجاسر والمسك ، لأرى ان كنت مادة أم ظلالا ···

ثم اضاف بعد فترة صمت قائلا :

ـ غير مخلصة ! غائبـة لمدة شهر كامل ونسيتينى تماما ... أقسم بذلك !

لم يغادر المرقى ، وكدت أرغب فى الذهاب اليه . واستفسرت فى الحال اذا لم يكن قد ذهب الى لندن .

ـ أجل ، أعتقد أن مسز فيرفاكس قد أخبرتك السبب . يجب أن ترى العربة يا جين ، واخبرينى اذا لم تكن تلائم مســز روتشستر بالضــبط . أود ، يا جين ، لو كنت أضاهيها فى حسن مظهرها . اخبرينى الآن يا ساحرة ... ألا تستطيعين اعطائى سحرا ليجعل منى رجلا حسن المظهر ؟

ـ ان هذا فوق قدرة السحر يا سيدى .

واضفت فى فكرى قائلة :

ـ العين المحبـة هى كل الســحر المطلــوب . ولهذه ... أنت حسن المظهر بما فيه الكفاية ، أو لعل قسوتك لها قوة فوق الجمال .

كان مستر روتشستر يقرأ أحيانا أفكارى غير المنطوقة فى سرعة لا أفهمها • ففى الحالة الراهنة ، لم يهتم بكلماتى الحادة ، بل ابتسم لى ابتسامة معينة خاصة به والتى كان يستخدمها فى مناسبات نادرة فقط •• انها كانت اشراقة الشمس الحقيقية للشعور • ثم قال وهو يفسح لى مجالا لعبور المرقى :

– مرى يا جين • اذهبى الى البيت وارتاحى •

كل ما كان على أن افعله هو الامتثال له فى سكون • وعبرت من فوق المرقى بلا كلمة قاصدة أن أتركه فى هدوء • ولكن قوة ما جعلتنى ألتفت خلفى، وقلت برغم نفسى :

– شكرا ، مستر روتشستر على كرمك العظيم • أنا سعيدة بشكل غريب لأعود اليك ثانية • وبيتى ، حيث أنت •

ومشيت بسرعة لدرجة أنه لم يكن يستطيع اللحاق بى اذا حاول ذلك •• أصبحت أديل الصغيرة شبه مجنونة بالفرح عندما رأتنى •• واستقبلتنى مسز

فيرفاكس بصداقتها الصريحة المعتادة ، وحتى الخدم ابتسمن لى ٠٠ كان ذلك مبهجا ، حيث انها المرة الأولى فى حياتى التى جربت فيها فرحة العودة الى البيت ٠

وأعقب عودتى الى ثورنفيلد أسبوعان من الهدوء٠ ولم يذكر شىء عن زواج سيدى ، ولم أر أى استعدادات لمثل هذا الحدث ٠ وأدهشنى شىء واحد بصفة خاصة ، وهو عدم وجود رحلات للزيارة ولا زيارات لمزرعة « انجرام بارك » ٠٠ ولم أذكر ابدا فى أى وقت كان وجه سيدى مستبشرا هكذا ٠ فاذا قضيت مع تلميذتى أوقاتا بصحبته وكنت كئيبة مبتئسة ، لأصبح هو مرحا مبهجا ٠ واخذ يدعونى لحضرته بشكل متكرر ٠٠

وآه ! فلم أكن أحبه هذا الحب الجميل من قبل ٠٠٠ !

الفصل السابع والعشرون

هبوب العاصفة

وفى احدى أمسيات الصيف ، ذهبت أديـــل ، المتعبة من جمع الفواكه البرية الى النوم مبـــــكرا ٠ وراقبتها الى أن استغرقت فى النوم ، وعندما تركتهـا ذهبت الى الحديقة ٠

كانت الآن أحلى ساعة فى اليوم كله ٠ غــروب الشمس يعطى مكانه لشروق القمر ٠ واكتشفت ممرا ملتويا حيث يمكننى التجوال دون أن يرانى أحــد ، ولكن ترددت خطواتى بعد مسافة وجيزة ٠ شىء مـــا جعلنى أتوقف ٠٠ لا صوت ، ولا منظر ولكن رائحـة

منذرة . لم تكن هذه الرائحة الجديدة لأوراق الشجر ولا لزهرة من الزهور . كانت ـ رائحة أعرفها جيدا ـ سيجار مستر روتشستر .. فرأيته عن بعد ، فخطوت جانبا الى مقعد فى أحد الأركان ، وفكرت قائلة :

ـ اذا جلست ساكنة فلن يرانى !

وأخذ يتجول .. ثم يتفحص الفاكهــة عــلى الشجيرات .. والآن بدأ ينحنى تجاه نبات مزهر . فاستقرت حشرة كبيرة بضجة واضحة قرب قـدمه . فرآها والتفت ليفحصها .

وفكرت :

ـ والآن ، ظهره تجاهى ، ربمـا أمكننى المشى بهدوء ، حتى أســتطيع التسلل خارجــة دون أن يلاحظنى .

فمشيت بلطف على طرقة مغطاة بالعشب ، ولكن عندما عبرت ظله الذى يلقيه القمر طويلا على الحديقة قال بهدوء دون أن يلتفت :

– ارجعى يا جين · انه من المخجل أن تبقى فى الداخل فى مثل هذه الامسية الجميلة !

من أحد عيوبى ، رغم أن لسانى كثيرا ما يكون جاهزا للاجابة الفورية ، الا أن هناك أوقاتا عصيبة يفشل فيها لسانى بشكل محزن فى تقديم اعتذار ·· ويظهر هذا الضعف دائما فى اللحظة الصعبة ، عندما أحتاج لكلمة ما بسيطة للخروج من موقف محرج ·· لقد فشل لسانى الآن ·· وقال مستر روتشستر عندما دخلنا طريقا محفوفا بالأشجار :

– جين ، ثورنفيلد مكان جميل فى الصيف ؟ أليس كذلك ؟ ألا تأسفى لتركها ؟

فسألت :

– أيجب أن أتركها ، يا سيدى ؟

– مع الأسف يا جين ، اعتقد ذلك ·

– اذن ستتزوج يا سيدى ؟

فى غضون شهر آمل أن أحضر عروسى للبيت ·

ولقد سمعت ، عن طريق حماتى المستقبلة ، عن مكان اعتقد أنه يناسبك ، حيث تعلمين خمس بنات لسيدة فى غرب أيرلندا ٠٠

ـ انه مكان بعيد يا سيدى ٠

ـ لا بأس ٠ فلن تمانع فتاة فى ادراكك بسبب الرحلة أو البعد ٠٠ لقد أصبحنا خير أصدقاء يا جين أليس كذلك ؟

ـ أجل يا سيدى

ومن غير المحتمل أن نلتقى ثانية ٠ أعتقد أنـك ستنسينى ؟

ـ هذا لا يجب على أبدا يا سيدى ، تعرف ٠٠ كان من الصعب الاستمرار ٠٠

ـ جين ، هل تسمعين هذا الطائر المغـــرد فى الغابة ؟

وعند سماعى ، بكيت ٠ لم أستطع اخفاء شعورى أطـول من ذلك ٠ وعندما تكلمت كان ذلك لأعبر عن

رغبة جياشة فى عدم وجودى فى الدنيا أو عدم قدومى الى ثورنفيلد ابدا ٠

وكان عنف شعورى الذى حركه الحزن والحب يكسب السيطرة ويطالب بحق الغزو والكلام ٠

فقلت :

– احب ثورنفيلد ٠٠ أحبها لأنى عشت فيها حياة سارة ممتعة ٠٠ لفترة وجيزة على الاقل ٠ لم أتعرض لاهانة أو أعامل معاملة سيئة ٠٠ لقد تحدثت وجها لوجه بما أهوى ٠٠ مع عقل قوى أصيل ٠٠ لقد عرفتك يا مستر روتشستر ، وأجد أنه شىء فوق الاحتمال أننى يجب أن أنفصل عنك الى الابد ٠٠ انى أرى أن ضرورة الابتعاد عنك تشبه ضرورة الموت ٠

– أين تجدين الضرورة ؟

– أنت ، سيدى ، لقد وضعتها أمامى ، فى شكل عروسك ٠

– عروسى ! ليس لى عروس !

ـ ولكنك سيكون لديك ٠
ـ أجل ؟ سيكون ؟ سيكون !

وبدا عليه التصميم ، فاجبت متحـركة الى شيء يشبه الهيام :

ـ اذن ، اقول لك يجب أن اذهب ٠٠ هل تظن اننى أستطيع البقاء لأصبح لا شيء بالنسبة لك ؟ ٠٠ هل تظن أنى آلة بلا شعور ؟ ٠٠ هل تظن ، لأنى فقيرة متواضعة ٠ بسيطة ، صغيرة فانا بلا روح وبلا قلب ٠٠ ان ظنك خاطيء ! واذا كان الله قد أعطانى بعض الجمال وثروة وفيرة ، لكان من الصعب عليـــك أن تتركنى ٠٠ ! اننى لا أتكلم اليك الآن بمعايير التقاليد والعالم ٠٠ انها روحى تخاطب روحك ، كما لو كنـــا واقفين أمام الله متساويين ، كما يجب أن نكون !

فردد مستر روتشستر :

ـ كما يجب أن نكون ! ٠٠ هكذا ٠٠ ؟!

ثم اضاف وهو يضمنى بين ذراعيه :

ـ هكذا ، يا جين !

فاجبت :

– أجل ، هكذا يا سيدى ، وليس هكذا أيضا ، لأنك سوف تتزوج من انسانة لا تستحقك ٠٠ واحدة ليس لديك مشاركة وجدانية معها ٠٠ ولا أعتقد أنك تحبها حقا ٠ انى أستنكف مثل هذا الزواج ٠ لذلك فأنا أفضل منك ٠٠ دعنى أذهب !

– اين يا جين ؟ الى ايرلندا ؟!

– أجل ٠٠ الى أيرلندا ٠ لقد قلت ما أعتقده ، ويمكن أن أذهب الى اى مكان الآن ٠

– جين ، هدئى من روعك ، لا تصرخى هكذا ، مثل الطائر البرى ٠

– أنا لست بطائر ٠ أنى بشر حر بارادة مستقلة هى التى أستخدمها الآن لأتركك ٠

واطلقت سراحى بعد جهد آخر ٠٠ **فقال :**

– وارادتك ستقرر مصيرك ٠٠ أقدم لك يدى وقلبى ونصيبا فى كل ما أملك !

سكت ، معتقدة انه يهزأ بى ٠

ـ هل تشكين فى يا جين ؟

ـ كلية ٠

ـ ألا تثقين فى ؟

ـ ولا ذرة ٠

فسأل بشىء من الانفعال :

ـ هل أنا كاذب فى نظرك ؟ أيتها الشكاكة الصغيرة ، سأجعلك تؤمنين بى ! أى حب لدى نحو مس انجرام ؟ البته ٠٠ أى حب لديها نحوى ؟ لقد خلقت قصة ما لتصلها أخبار بأن ثروتى لا تصل ثلث ما هو مفروض ٠٠ وعندما زرتها لأرى النتيجة ، فكان برودا منها ومن أمها ٠ اننى لن أتزوج ٠٠لا أستطيع أن أتزوج مس انجرام ٠ لقد حاولت فقط أن أجعلك غيورة ٠ أنت ٠٠ أحبك كنفسى ٠ أنت ٠٠ الفقيرة ، والمتواضعة والصغيرة والبسيطة كما أنت ٠٠ أتضرع اليك أن تقبلينى زوجا !

بدأت ، مع جديته وخصوصا بلاغته الواضـــحة أن أصدق اخلاصه ٠

ـ هل حقا تحبنى ؟ هل حقا ترغب فى أن أكون زوجة لك ؟

ـ اجل ، ومستعد لأقسم بذلك ٠

ـ اذن ، سأتزوجك ٠

فجذبني اليه قائلا :

ـ اصنعى سعادتى ٠٠ وسأصنع ســـعادتك ٠ سامحنى يا الله ! لا تدع انسانا يتدخل بيننا ٠٠ انها هديتك لى وسأصونها ٠

ـ لا يوجد من يتدخل يا ســـيدى ٠ فليس لى أقارب ليتدخلوا ٠

فقال بصوت هادىء :

ـ وهذا أفضـــل ما فى الموضوع ٠ أنا أعرف أن الله يوافق على ما أفعل ٠ واما بالنسبة لحكم العالم، فلا أهتم به ٠

ولكن ماذا حدث لليل ؟ ·· فالقمر دخـــل فى الغيوم ، وزمجرت الريح فى الطريق المحفوف بالاشجار وانبثقت شرارة من السماء تلاها صوت انفجار هائل، فقال مستر روتشستر :

ـ يجب أن ندخل ·· فالطقس سيتغير · كنت أستطيع الجلوس معك حتى الصباح يا جين ·

وانهمر المطر كالسيل ، فأخذ يحثنى على الاسراع الى المنزل · وكان ينفض ثوبى من الماء عندما خرجت مسز فيرفاكس من غرفتها · فبدت شاحبة ، جـــادة، ومندهشة · فابتسمت لها فقط ثم ركضت صـاعدة للطابق العلوى · وفكرت ·

ـ فلتتم التفسيرات فى وقت آخر ·

استمرت العاصفة طوال الليل ، مع برق ورعد ومطر · وفى الصباح جاءت أديل الصغيرة راكضـــة الى حجرتى لتخبرنى أن شجرة كبيرة فى آخر الحديقة قد صعقت بسبب البرق وانفصل نصفها بعيدا ··

الفصل الثامن والعشرون

الطرحة الممزقة

سيتم زفافنا بهدوء فى غضون شهر · اثناء ذلك رغم اعتراض مستر روتشستر ، واصلت العمل كمربية لأديل ، ورفضت أن أقضى معه أى وقت ، فيما عدا الساعة الاعتيادية بعد العشاء · وقاومت ، أيضا ، رغبته ليشترى لى جواهر وملابس غالية ، وبهذه المناسبة ، تذكرت بأننى ، فى عجلة الاحداث ، قد نسيت ـ رسالة عمى جون اير الى مسز ريد ، ونيته فى أن يتبنانى ويجعلنى وريثته ، **ففكرت :**

– حقا كانت ستصبح فرجا حتى لو كان لى

مبلغ سنوى من المال خاص بى · ســـأكتب لعمى واخبره أننى حية لم أمت ، وسأتزوج ·

وهذا ما فعلته فى التو ·

مضى الشهر ·· وكل الاستعدادات ليوم الزفاف قد تمت · لقد تم ترتيب أمتعتى فى صناديق وأغلقت ومنتظرة تثبيت بطاقة العنوان التى كتب مســـتر روتشستر عليها بنفسه اسم « مسز روتشستر » ، فبعد احتفال الزفاف مباشرة سنغادر الى أوربا ·

شـعرت بالقلق والاثارة · ولم تجعلنى العجلة كالمحمومة فى الاستعداد ، ولا فكرة الحياة الجديدة التى ستبدأ غدا · فهناك سبب ثالث أثـر فى عقلى أكثر من ذلك ·

لقد اضطرب عقلى ·· لقد حدث شىء لم أستطع فهمه · لم يعرف أو يرى الحدث الا أنا وحدى ·· لقد حدث فى الليلة السابقة · عندما كان مستر روتشستر غائبا عن البيت فى عمل ما · وانتظرته متطلعة أن يقدم لى حلا لهذه المشكلة ·

وجاء أخيرا ، وأعدوا له طعام العشاء ٠ **وقال لى :**

ـ اتخذى مقعدا وشاركينى الطعام يا جين ٠ هذه آخر وجبة ستأكلينها فى ثورنفيلد هول لمدة طويلة ٠

فجلست بالقــــرب منه ولكنى قلت له اننى لا أستطيع الأكل ٠

ـ هذا لانك تفكرين فى الرحــــلة التى أمامك يا جين ؟ ما هذا اللون الساطع الذى على وجنتيك ! ولم هذا البريق العجيب فى عينيك ! هل أنت بخير ؟

ـ أظن هذا ٠ أود الا تنتهى هذه الساعة الراهنة من يدرى ماذا يأتى به القدر بعد ذلك ؟

ـ انك منفعلة جدا يا جين ، ومرهقة أيضا ٠ امنحينى ثقتك ٠ خففى عن عقلك ما يقلقه مهما كان !

ـ اذن ، اسمع يا سيدى ، فى الليلة الماضية لم أستطع النوم بعد ذهــــابى لفراشى بفترة ٠ كانت العاصفة تهب ، لكن وراء الضجة التى تحدثها بدا لى سماع صوت آخر ، مثل صرخة كلب مسعور مــــن

بعيد . وعندما نمت أخيرا شاهدت حلما بأن ثورنفيلد هول أصبحت حطاما .

– هل هذا كل شيء يا جين ؟

– هذه هي المقدمة يا سيدى . القصة آتية بعد ذلك . وعندما استيقظت سطع شعاع ضوء في عيني. فكرت أنه ضوء النهار ، ولكنى كنت مخطئة . كان لا يزيد عن ضوء شمعة . فظننت أن الخادمة قد دخلت وسقط الضوء على المائدة ، وكان باب الخزانة مفتوحا حيث علقت ، قبل ذهابي للفراش ، ثوب زفافي مع « الطرحة » ! .. وسمعت حركة هناك ، وخرج شبح من الخزانة .. أخذ الضوء ورفعه الى أعلى وتفحص الملابس المعلقة هناك ، فناديت ثانية ، وكان لا يزال صامتا .. نهضت من السرير ، وانحنيت الى الامـــام فامتلأت بالدهشة ثم جرى دمي باردا . مستر روتشستر لم تكن الخادمة ، كما لم تكن مسز فيرفاكس .. كلا لم تكن .. أنا متأكدة من ذلك . كما لم تكن هـــذه المرأة الغريبة ، جريس بوول .

فقال سيدى مقاطعا :

ـ لابد أن تكون واحدة منهن ٠

ـ كلا يا سيدى ٠

ـ صفيها لى يا جين ٠٠

ـ انهـا يا سيدى ، امرأة طويلة ، لها شـعر أسود كثيف منسدل على رقبتها ، وبعد أن التقطت الطرحة وألقت بها فوق رأسها ٠ ونظرت فى المرآة ، فرأيت انعكاس ملامحها فيها ٠ كان منظرا بشعا ٠٠ غير طبيعى فظـا ، شرسـا ٠٠ ثم نزعت الطرحـة ، يا سيدى ، ومزقتها نصفين وألقت بهما على الأرض وسحقتهما بقدمها ٠

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تحرك شبحها عائدا الى البـاب ٠ ثم توقفت بجانب سريرى تماما ، وأمسكت بالشمعة بالقرب من وجهى ثم وضعتها تحت عينى ٠٠ فرأيت وجههـــا متوهجا فوق وجهى ، ثم أغمى على ٠ وللمرة الثانيـة فى حياتى أفقد وعيى من الرعب !

ـ من كان معك عندما استرددت وعيك ؟

ـ لا أحد . وكان ذلك بعد طلوع النهـــار .. فنهضت وغسلت رأسي ووجهي بالماء . وبرغم ضعفي فلم أكن مريضة .. لقد احتفظت بهذا السر .. والآن يا سيدى ، قل لى من وماذا كانت هذه المرأة .

ـ اختراع عقلك المتهيج . هذا أكيد .

ـ أود لو أقتنع بذلك يا ســيدى ، لكن عندما نهضت وتطلعت حولى فى الغرفة ، رأيت الطرحة على السجادة ممزقة من أولها الى آخرها الى نصفين !

أبدى مستر روتشستر علامة اندهاش وقال :

ـ شكرا لله على أنها كانت الطرحة فقط التى تمزقت ! والآن يا جين ، سأفسر كل هذا . أنه كان نصفه حلم ونصفه حقيقة . لا شك بأن امرأة دخلت غرفتك بالفعل . لا بد أنها جريس بوول . وحصلت فى حالة بين التيقظ والنوم على فكرة زائفة عن مظهرها وتمزيق الطرحة حقيقى . ستسألينى لماذا أحتفظ بمثل

هذه المرأة في منزلي ·· عندما نتزوج ويمضي علينا سنة ، ساخبرك · هل رضيت ؟!

فكرت ·· فبدا ذلك الحل الممكن الوحيد ،ولكني لم أكن راضية ، وحاولت أن أظهر ذلك ، لارضائه، وقال مستر روتشستر :

– يجب أن تنامي في غرفة أديل الليلة، اذ لا أحبذ أن تنامي وحدك ، واغلقي الباب من الداخل · والآن يا جين ابعدي الأفكار الكئيبة !

ولم أنم الا قليلا ، اذ لم يفارق عقلي الشعور بالزيف ··

الفصل التاسع والعشرون

ايقاف الزواج

جاءت الخادمة فى الصباح التالى لمساعدتى فى ارتداء ملابسى . وأخذت وقتا طويلا ، وعندما نزلت كان مستر روتشستر منتظرا بنفاد صبر عند نهـاية السلم ، وقال لى انه سيمنحنى عشر دقائق فقط لأتناول طعام الافطار . وأمر ، أثناء ذلك ، باحضار الأمتعـة والعربة الى الباب .

ـ جين . هل أنت مستعدة ؟

فنهضت ، لم يكن هناك ضـــيوف ولا أقارب لننتظرهم . وأسرع مستر روتشستر بى خـارج المنزل

ولا زلت أستطيع تذكر الكنيسة القديمة الرمادية خارج بوابات ثورنفيلد تقف شامخة فى هدوء أمامى، وسماء الصبح الحمراء من خلفها · ولم أنس أيضا شكل الغريبين وهما يتجولان حول باحة الكنيسة ، واللذين استدارا للخلف عندما رأيانا ٠٠ لم يلاحظهما مستر روتشستر ، الذى كان ينظر بجدية فى وجهى ·

دخلنا المبنى الهادىء ، واتخذنا أماكننا ٠٠ والقس والكاتب كانا منتظرين ، وبدأت الطقوس · وتمـــت قراءة تفسير هدف الزواج وواجباته ، ثم تقدم رجل الدين للأمام خطوة ، **وانحنى قليلا تجـــاه مســـتر روتشستر ، وقال :**

ـ أطالب وأنصح كلا منكما ، اذا كان يعـرف أحدكما أى سبب يجعله لا يصلح قانونا لاتمام مراسم الزواج أن يعترف به الآن ·

ثم توقف ، كالمعتاد ٠٠ ولم يرفع رجل الدين عينيه من كتابه٠٠انتظر دقيقة واحدة٠وبدأ يسترسل **عندما قال صوت قريب :**

ـ لا يمكن أن يتم هذا الزواج ‥ أنني أعلن عن وجود عقبة !

نظر القس الى المتحدث ‥ وكان أحد الغريبين اللذين لاحظتهما من قبل · تحرك مستر روتشستر قليلا ، ثم وقف بثبات اكثر وقال :

ـ استمر ·

فكرر الصوت من خلفنا :

ـ يجب ايقاف الطقوس · فلدى الدليل على ما أقول !

وتردد القس قائلا :

ـ ما هي نوع العقبة ؟ ربما يمكن تبريرها ·

فكانت الاجابة :

ـ من الصعب ·

واستمر المتحدث ناطقا كل كلمة بوضوح وهدوء وثبات :

ـ انها ببساطة بسبب وجود زواج سـابق ٠ مستر روتشستر له زوجة حية ٠

نظرت الى مستر روتشستر وجعلته ينظر لى ٠٠ كان وجهه يبدو مثل صخرة لا لون لها ٠

وكانت عيناه تطلقان شرارا ٠٠ وبدون ابتسام أحاط خاصرتى بذراعه وضمنى الى جانبـــه وسـال الغريب :

ـ من أنت ؟

ـ اسمى بريجز ٠ وأعمل محاميا ٠

ـ وتدعى أن لدى زوجة سابقة ٠٠ ؟!

ـ أذكرك بوجود الليدى يا سيدى ، التى يعترف بها القانون ، إذا لم تكن تعترف بها أنت !

ـ حدثنى عنها ٠٠ اسمها ، عائلتها ٠

ـ بالتأكيد ٠

وأخرج مستر بريجز ورقة من جيبه وقرأها فى صوت هادىء :

ـ « أقر وأستطيع اثبات أن ادوارد روتشستر من ثورنفيلد هول كان متزوجا من أختي بيرثاميسون في جامايكا .. منذ خمس عشرة سنة ، وتفاصيل الزواج موجودة في سجلات الكنيسة هناك . ونسخة منها في حوزتي حاليا . توقيع ريتشارد ميسون » .

ـ اذا كان هذا الدليل حقيقي ، فقد يثبت بأنني كنت متزوجا ، ولكنه لا يثبت أن المرأة المذكورة لازالت حية .

ـ كانت حية منذ ثلاثة شهور . ولدى شاهد على هذه الحقيقة .

ـ أين هو ؟

ـ انه حاضر . مستر ميسون تقدم الى هنا من فضلك .

وعند سماع الاسم طحن مستر روتشستر أسنانه . وشعرت بحركة غضب أو يأس مفاجئة تسرى في جوانبه . وظهر الغريب الثاني الذي بقي

حتى الآن مستترا بوجه شاحب طل من فوق كتفى المحامى • انه ميسون نفسه • التفت مستر روتشستر وثبت فيه عينيه • وتحرك ورفع ذراعه القوية •• كان على وشك أن يضرب ميســـــون ، ويلقيه على أرض الكنيسة ، ولكن الرجل تراجع الى الخلف مرتعدا وهو يصرخ بشكل ضعيف •

وقال القس :

ـ سيدى ، لا تنس انك فى مكان مقدس •

ثم خاطب ميسون مستفسرا بلطف :

ـ هل تعرف يا سيدى ، اذا كانت زوجة هـذا السيد مازالت حية •

فقال ميسون فى صوت منخفض متردد :

ـ انها تعيش الآن فى ثورنفيلد هـول • لقد رأيتها هناك فى شهر ابريل الماضى •

فاستفسر رجل الدين :

ـ فى ثورنفيلد هول · مستحيل ! لقد عشت سنوات عديدة فى هذه المنطقة ، يا سيدى ، ولم أسمع ابدا عن مسز ثورنفيلد هناك ·

فرايت ابتسامة مرة لوت شفتى مستر روتشستر **وقال من بين اسنانه :**

ـ كلا ، بالله ! لقد حرصت على ألا يسمع أحد بهذا الاسم ·

وظل صامتا لبضع دقائق ، **ثم استمر قائلا :**

ـ كفى ! كل شىء سيكشف النقاب عنه · اطو كتابك · لن يتم زفاف اليوم

وبدا مستر روتشستر قصته ··

الفصل الثلاثون

قصة مستر روتشستر

اننى حاليا أفضل قليلا من الشيطان ، وأستحق بدون شك أقسى أحكام الله ٠٠ أيها السادة الأفاضل، ان خطتى تحطمت ٠٠ فما قاله هذا المحامى وشاهده حقيقى ٠ ورجل الدين هنا ، يقول أنه لم يسمع أبدا عن سيدة تدعى مسز روتشستر فى الهول ٠ ولكنى اعتقد انه استمع من حين لآخر عن المرأة الغامضـــة المتحفظ عليها بالقفل والمفتاح ٠٠

أعلنكم الآن أنها زوجتى ، أخت هذا الشخص المقدام ، بوجهه الابيض ، وجسده المرتعش ٠ بيرثا

ميسون مجنونة ، وجاءت من عائلة مجنونة ، ضعيفة العقل وعنيفة ٠

كانت أمها امرأة مجنونة وسكيرة الى حد الادمان ٠٠ كما اكتشفت بعد زواجي من الابنة ، لانهم كانوا كتومين على أسرار العائلة قبل ذلك ٠ وبيرثا نسخة من أمها ٠٠ نسخة مطابقة تماما ٠٠

كان أبي هو الملام على ذلك ٠ لم أكن الابن الاكبر كان لدى أخ أكبر منى ٠٠ ولم يكن أبى رجلا كريما ولم يكن يحتمل فكرة تقسيم ممتلكاته حتى يترك لى نصيبا عادلا ، فقرر أن يؤول كل شيء الى أخى الاكبر٠ ولكنه لم يحتمل أن يترك ابنـا له فقيرا معدما ، لذا لابد من أن يكفل لى زواجا ثريا ٠٠

وكان مستر ميسون تاجرا فى جزر الهند الغربية وكان معروفا لأبى منذ مدة طويلة ٠٠ وكان لهـــذا التاجر ابن وبنت ، وعلم والدى بأنه سيهب ابنتـــه ثروة تقدر بثلاثين ألف جنيه ، وكانت كافية لأبى ٠ وعندما تركت الكلية ، أرسلنى الى جامايكا ، لأتزوج

عروسا قد تم اختيارها لى من قبل ٠ ولم يقـــل أبى شيئا عن مالها ، لكنه قال لى بأن مس ميسون عروس من مدينة أسبانية يقدمها لى لجمالها وهذا لم يكـن كذبا ٠٠ وجدتها فتاة جميلة من نمط بلانش انجرام٠ وقدموها لى فى الحفلات فى أفخم ملابس ٠ ولم أرها بمفردها الا نادرا ولم اتحدث معها بشكل خاص الا قليلا ٠ وكان جميع الرجال يبدون اعجابهم بهـــا ويحسدوننى ٠ فانجذبت ، ولما كنت غرا صـــغيرا ، اعتقدت أنى أحببتها ٠ وشجعنى اقرباؤها ، وجعـــل المنافسون منى غيّورا ٠ وتمت مراسيم الزواج تقريبا قبل أن أعلم بها ٠

وفيما بعد اتضحت لى الحقيقة كاملة ٠٠ وتحول جمال زوجتى الى فظاظة ٠ وتطورت نقاط ضعفها الى أسوأ حالاتها ٠٠ أثناء ذلك توفيت والدتى وبعد أربع سنوات مات والدى أيضا ٠٠ وأنا ثرى الآن ، ولكن أفقر من العبيد فى عالم السعادة !

أحضرت زوجتى الى انجلترا ٠ وكانت رحـــلة

رهيبة مع مثل هذه المخلوقة على السفينة • فاستأجرت جريس بوول التى كانت تعمل فى مستشفى للأمراض العقلية لمراقبتها • فهى والطبيب كارتر كانا الوحيدين اللذين يعرفان سرى ، حتى مسز فيرفاكس قد تشك فى بعض الاشياء لكنها ليست على علم بالحقـــائق • وأثبتت جريس ، بصفة عامة أنها حارسة جيدة ، برغم أنها بسبب ميلها للشرب أحيانا سمحت لمريضـــتها بالافلات مرة أو مرتين •

ولكن أيها السادة الأفاضل ، لا أدين لكم بتفسير أكثر من ذلك ، انما أدعوكم لتأتوا الى المنزل وتزوروا مريضة مسز بوول •• زوجتى !

واستمر قائلا وهو ينظر الى :

ـ وهذه الفتاة ، لا تعرف شيئا عن هـذا السر المقزز • لقد ظنت ان كل شىء سليم وقانونى • تعالوا جميعكم •• اتبعونى !

وترك الكنيسة وهو لايزال ممسكا بى بقوة، وجاء

الرجال الثلاثة من بعدنا · وعند الباب الأمامى للهول وجدنا العربة ·

فقال مستر روتشستر لسائقها :

– عد بها الى الاسطبل ·· فلن نحتاج لهـــا اليوم ·

وعندما دخلنا ، تقدمت مسز فيرفاكس وأديـل والخدم لتحيتنا ·

فصاح السيد .

– ابعدوا بتهانيكم ! من يريدها ؟ لست أنا ! انها متأخرة خمسة عشرة عاما ·

واستمر فى سيره ، وصـعد السلم الى الطابق الثالث · وفتح بمفتاحه الباب الاسود الصغير ، وسمح لنا بالدخول الى الغرفة التى كان ميسون راقدا فيهـا جريحا منذ فترة ، ثم فتح الباب الداخلى ، ودخلنا ·

وفى غرفة بدون نوافذ ومدفأة تشتعل محمية بقضبان قوية عالية ، ومصباح يتدلى من الســقف

بواسطة سلسلة ، كانت جريس بوول تنحنى فـــوق الموقد تطبخ شيئا في وعاء • وفى الظل المبهم عنـــد أبعد طرف للغرفة كان هناك شيء يركض ذهابا وايابا •• ماذا كان ذلك ، حيوان أم بشر لا يستطيع أحد أن يقول من أول نظرة •• انها تزحف ، على ما يبدو ، فوق البلاط ، وتصدر ضجيجا شبه حيوانى غريب ، ولكنها كانت مغطاة بالملابس وكمية من الشعر الاشيب يخفى وجهها وراسها •

وقال مستر ورتشستر :

ـ صباح الخير مسز بوول • كيف حال مريضتك اليوم ؟

فاجابت جريس وهى ترفع الوعاء الذى يغــلى بحرص من فوق النار :

ـ متوسطة الحال ، سيدى •

واوحت صرخة شرسة بان هذا التقرير خاطىء • فالحيوان المغطى بالملابس نهض واقفا •

فقالت جريس :

ـ آه ، يا سيدى ، انها تراك ! من الأفضل ألا تبقى خذ حذرك بالله عليك !

وزمجرت المـرأة المجنـــونة ، ودفعت بشـــعرها المشوش من على وجهها وأخذت تحملق بوحشية فى زوارها ٠٠ وتذكرت تلك الملامح الفظة ٠٠ وتقدمت مسز بوول ٠

فقال مستر روتشستر :

ـ ابعدى عن الطريق ٠ فليس لديها سكينها الآن على ما أظن ، أنا أراقبها ٠

فصاحت جريس :

ـ انتبه !

وتحرك السادة الرجـــال الى الخلف مسرعين ٠ ودفعنى مستر روتشستر خلفـــه ٠ وقفزت المرأة

المجنونة وقبضت عليه من حلقه بشراسة ووضعت اسنانها فى جانب وجهه . وتصارعا . كانت امرأة كبيرة الحجم وطولها يكاد يتساوى مع زوجها وقوية فى نفس الوقت . كان يمكنه أن يخمدها بضربة مسددة جيدا ، لكنه لم يضربها . وأخيرا أمسك بذراعيها وربطها فى الكرسى ببعض الحبال . تمت العملية بصرخات متوحشة من المرأة المجنونة . والتفت مستر وتشستر عندئذ الى الرجال الذين كانوا يراقبون بابتسامة لعلها مرة ويائسة ، **وقال :**

ـ هذه زوجتى !

ثم أضاف ، واضعا يده على كتفى :

ـ وهذه من وددت أن تكون زوجتى . هذه الفتاة الصغيرة التى تقف بهذا السكون والهدوء . أنظروا الى الفارق ، ثم احكموا على اذا استطعتم !

غادرنا جميعا الغرفة ما عدا مستر روتشستر ،

الذى تخلف قليلا ليعطى بعض التعليمات لجريس بوول
وأثناء نزولنا السلم قال لى المحامى :

– انك ، يا سـيدتى ، بعيدة عن كل لوم ٠ وسيسعد عمك سماع ذلك ٠٠ اذا كان ، فى الحقيقة، لا يزال حيا ٠

– عمى ! هل تعرفه ٠

– مستر ميسون يعرفه ٠ لقد ظل مستر ايـر وكيل أعماله بجزيرة ماديرا (★) لعدد من السنين ٠ وعندما استلم عمك رسالتك التى ذكرت فيها قـرب زواجك من مستر روتشستر ، تصادف وكان مستر ميسون عنده ، فأخبره مستر اير بالخبر ، عندمـا علم بأن مستر ميسون يعـرف مستر روتشستر ٠ واندهش مستر ميسون واضطرب ، وأحاطه علمـا ببواطن الأمور ٠ وأما عمك ، الذى ، وآسف لأقول ،

(★) الجزيرة الرئيسية لمجموعة صغيرة من الجزر فى الشمال الغربى من افريقيا ٠

مريض جدا حاليا ، ومن غير المحتمل أن يشفى ، لـم يستطع الاسراع بالقدوم الى انجلترا بنفسه لانقاذك من الشرك الذى وقعت فيه،ولكنه توسل لمستر ميسون أن يعود هنا فى الحال ويحاول ايقاف هـــذا الزواج الباطل ، وطلب منى أن أساعد مستر ميسون ٠

واذا لم أكن متأكدا من أن عمك ســـينتقل الى العالم الآخر قبل أن تستطيعى الوصول لماديرا ، لكنت نصحتك بالذهاب الى هناك مع مستر ميسون ٠ ومـــا أعتقده أفضل هو أن تبقى فى انجلترا الى أن يصلك مزيد من الأخبار سواء من مستر اير نفسه أو منى ٠

ثم سال مستر ميسون :

ـ هل لدينا شىء آخر لنبقى من أجله ؟

فكانت الاجابة القلقة :

ـ كلا ، كلا ٠٠ فلنذهب !

وذهبا من الباب الأمامى بدون انتظار للتحدث مع مستر روتشستر ٠

وقفت عند باب غرفتى المفتوح قليلا ، حيث عدت اليها الآن ، ثم حبست نفسى داخلها واغلقت البـــاب بالمفتاح ، وبدأت ـ لا أبكى ، لاننى كنت لازلت هادئة لافعل ذلك ـ بل لأخلع ثوب الزفاف وأعود الى الثوب البسيط الذى كنت أرتديه فى اليوم السابق ٠٠وكنت أعتقد أنها آخر مرة ٠ ثم جلست وأنا أشعر بالضعف والتعب ٠٠ وأسندت ذراعى على المائدة فسقط رأسى عليهما ٠

ان جين اير التى كانت فتاة سعيدة شغوفة ٠٠ والتى كادت أن تصبح عروسا ، أصبحت وحيدة باردة مرة أخرى ٠٠ وماتت كل آمالها ٠٠ لا يمكن وصف هذه الساعة المريرة : فى الحقيقة لقد سقطت فى مياه عميقة وغطتنى الفيضانات ٠٠ !

الفصل الحادى والثلاثون

هــروب

وفى وقت ما من بعد الظهر ، رفعت راسى وتطلعت حولى وسألت نفسى :

ـ ماذا على أن افعل ؟

وكانت الاجابة التى اعطاها عقل :

ـ اتركى ثورنفيلد فى الحال !!

وكانت سريعة جدا ، مزعجة جدا لدرجـة أننى اغلقت أذنى ازاءها ٠٠ لم أكن أستطيع فعل ذلك ٠٠ ولكن صوتا داخلى قال بأن فى امكانى ان أذهب ٠٠

بل ويجب .. وصارعت بكل عزيمتي . وتعارك الضمير مع العاطفة ، حتى تعبت من معاناة العقل ، وضعفت من الجوع ، فاستغرقت في النوم !

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما نهضت ، ولم آخذ شيئا معي سوى محفظتي وصرة صغيرة ، وخرجت من غرفتي بهدوء .. كنت سأمر على غرفة مستر روتشستر بدون توقف ، ولكن قلبي توقف للحظة عن دقاته ، وتسمرت قدماي أيضا عند بابه . وسمعته يمشي هائما قلقا في الداخل .. سيبعث لي في الصباح .. سأكون قد رحلت .. قد يعاني ، وربما يغرق في اليأس .. فترددت ، ثم تحركت .

وحصلت من المطبخ على بعض الماء والخبز . وبدون صوت فتحت الباب ومرقت للخارج . وبعد ميل وراء الحقول كان يقع الطريق الممتد في الاتجاه المعاكس لميلكوت ، وهو طريق لم أسلكه مطلقا لكن لاحظته من قبل . فوجهت خطواتي تجاهه .

وأخذت أكد في السير ، وكاد أن ينتهي ليـــل

الصيف القصير ، وبدأت الطيور تغرد فى الشجيرات· كانت الطيور مخلصة لحبها · وأنا ؟ كنت كارهة لنفسى ولازلت لا أقدر على الرجوع ·· لابد أن الله هو الذى يقودنى ·· انى ابكى بحرقة وأنا أمشى فى طريقى بسرعة ، بسرعه كواحدة فقدت عقلها · وفى النهاية استوى على ضعف وسقطت ··

رقدت على الأرض لعدة دقائق · لقد كان لدى خوف ·· أو أمل فى أن أموت ، ولكنى نهضت ثانية بنفس عزيمتى لأصل للطريق ··

وعندما وصلت هناك ، سمعت عجلات ، ورأيت عربة قادمة · أوقفتها وطلبت أن أركب الى المكان الذى يمكن أن تكون أجرته الجنيه الوحيد الذى فى محفظتى ··

ودخلت الى العربة ·· التى انطلقت مرة أخرى فى طريقها ··

الفصل الثانى والثلاثون

اليــأس

كان مساء اليوم التالى ، عندما أنزلتنى العــربة فى مكان يلتقى فيه أربعة طرق ٠ وانطلقت العربة بعد نزولى ، واصبحت تبعد ميلا الآن ٠٠ وأنا وحيدة ٠٠ وفى هذه اللحظة اكتشفت انى نسيت أن آخذ صرتى من العربة ٠ ولم يبق لى شىء فى الدنيا !

وأنبأتنى اشارة البريد أن اقرب بلدة تقع على بعد عشرة أميال ٠ وفى الخلف كانت توجــد تلال عظيمة ٠ كما توجد بعد ذلك سلسلة من الجبال خلف

الوادى العميق الذى يظهر تحت قدمى · ولم أر أى مسافر على الطريق ·

ماذا على أن أفعل ؟ أين يجب أن أذهب؟ تحسست العشب ، فكان جافا ولا يزال دافئا من حرارة الشمس· وكانت السماء صافية ، ولا توجد ريح · سكون الليلة ضيفة للطبيعة : قد تأوينى بلا مقابل · وكانت معى قطعة خبز باقية ، فجمعت حفنة من التوت البرى وأكلتها مع الخبز ·· ونلت بعض الراحة تلك الليلة ولكنى كنت مسحوقة بقلب حزين ·

وفى اليوم التالى سلكت طريقا يبعدنى عن الشمس الحارة ·· كنت ضعيفة متعبة تماما عندما سمعت أخيرا قرع جرس ·· جرس كنيسة ·· لابد أننى قريبة من حياة بشرية · وبعد قليل دخلت قرية· وفى نهاية أحد شوارعها كان يوجد محل به خبز ظاهر فى واجهته ·

دخلت المحل ، حيث كانت امرأة تقف فيه · فلما رأتنى جاءتنى بأدب مخدوعة بطريقة لبسى

المحترمة ... كيف ستؤدى لى مطلبى ؟ لقد استولى على الخجل .. فليس معى نقود على الاطلاق . وانعقد لسانى عن مطلبى للطعام الذى نويت أن أنطقه ، فرجوتها الاذن بالجلوس دقيقة ، فلما خاب ظنها أشارت ببرود الى كرسى .

وبعد برهة سألتها اذا كانت توجد خياطة بالقرية .

ـ أجل ، هناك اثنتان أو ثلاث . وهذا يكفى .

ـ هل تعرفين أى مكان فى المنطقة يحتاجون فيه الى خادمة ؟!

ـ كلا ، لا أعرف .

وواصلت حديثى معها قليلا ، ولكنها أظهرت ضيقها من أسئلتى . وأخيرا أخرجت منديلى وسألتها اذا كانت تعطينى رغيفا مقابله . فنظرت اليه فى شك فورى وقالت :

ـ كلا ، انا لا أبيع مطلقا بهذه الطريقة . من يدرينى من أين أتيت به ؟

غالبا ما يكون الشحاذ العادى عرضة للريبة ، اما الشحاذ حسن الهندام فهو دائما محل ريبة ، ولم أعتب على المرأة • وتركت القرية فى يأس •• وتسولت بقية اليوم ، ولكن بلا جدوى •

وقضيت الليلة فى غابة • كانت رطبة ، وعند الصباح أمطرت ، وهكذا مضى يوم آخر ، وبدأت أتمنى الموت • وعند نهاية اليوم التالى ،رأيت ضوءا خافتا عن بعد ، فجررت جسدى المكدود ببطء فى اتجاهه ، فامكننى رؤية بوابة بيضاء فى الظلام النامى ••• مررت منها فأتيت الى نافذة مطبخ • كانت هناك شمعة تحترق على المائدة ، وكانت امرأة عجوز ذات منظر خشن ، ولكنها نظيفة جدا تقوم بأعمال الخياطة بجانب الضوء •

وظهرت بالقرب من المدفأة فتاتان جميلتان بمعنى الكلمة • واحدة كانت جالسة على كرسى ذى مساند ، والأخرى علّى مقعد أكثر انخفاضا • وكانت كلتاهما فى ملابس سوداء • وكان هناك كلب عجوز ضخم يريح رأسه على ركبة احدى الفتاتين • وكانت الفتاة الأخرى تملس على فراء قطة سوداء •

كان هذا المطبخ المتواضع مكانا غريبا على مثليهما ! من هما ؟ ٠٠ لم أر مثل هذين الوجهين فى أى مكان ، ومع ذلك ، عندما أطلت بصرى فيهما بدت ملامحهما مالوفة لدى ٠٠ كانتا شاحبتين وعليهما سمات التفكير، وكل واحدة تنحنى فوق كتاب ، بينما يوجد على الأرض بجانبهما كتابان كبيران آخران يرجعان اليهما من وقت لآخر : لابد أنهما قاموسان ليساعداهما فى عمل الترجمة ٠

راقبتهما لفترة طويلة ٠ وبدأت المرأة العجوز أخيرا تجهز الطعام ٠ فذهبت الى الباب وطرقته ٠ ففتحته ، واستفسرت فى صوت مندهش ٠

ـ ماذا تريدين ؟

ـ هل لى أن اتكلم مع أصحاب البيت ؟

ـ من الأفضل أن تقولى لى ما تريدين أن تقوليه لهم ٠ من أين أنت ؟

ـ اننى غريبة ٠

ـ وما شغلك هنا فى هذه الساعة ؟

ـ انني أريد مأوى ليلة في ركن ما ، وكسرة خبز أسد بها رمقي ·

الريبة ·· الاحساس الذى كنت أخشاه ، ظهر على وجه المرأة · فقالت بعد فترة صمت :

ـ سأعطيك قطعة خبز ، ولكننا لا نستطيع أن نأخذ متسكعة لتنام عندنا ·

ـ أين سأذهب ، اذا طردتيني ؟

ـ اتوقع انك تعرفين أين تذهبين · ها هو بنس · هيا تحركي ·

وهنا أغلقت الخادم الباب وأرتجته من الداخل · وكانت هذه هي الطامة الكبرى ·· لم أستطع أن أذهب بضعفي خطوة أخرى ، فانهرت خارج الباب وبكيت ·· ثم قلت بصوت مسموع :

ـ ليس أمامي الا أن أموت · فلأنتظر ارادة الله في سكون ·

فقال صوت قريب مني تماما :

ـ جميع البشر حتما سيموتون ·

فسألت خائفة من الصوت المفاجيء :

– من يتكلم ؟

وطرق القادم الجديد بقوة على الباب ، فصرخت الخادم :

– هل هذا أنت يا مستر سانت جون ؟

– أجل ، أجل • افتحى بسرعة يا حنا !

– حسن • لابد انك مبتل ويلسعك البرد فى ليلة كهذه ! ادخل • أن أختيك قلقتان عليك • كانت توجد امرأة متسولة • أعتقد أنها لم تذهب بعد • انهضى ، يا للعار !

– اسكتى يا حنا • لقد قمت بواجبك ، والآن دعينى أقوم بواجبى •• أعتقد أنها حالة خاصة •

والتفت الى وقال لى أن أمر أمامه داخل المنزل • فاطعته بصعوبة • وفى التوكنت فى ذلك المطبخ النظيف البراق ، وجميع العائلة تتطلع الى •• وبدا رأسى يدور : وسقطت ، ولكن على كرسى • وكسرت احدى الأختين قطعة خبز وغمستها فى الحليب ، ووضعتها

في شفتي • كان في وجهها شفقة • تذوقت ما قدم لي بضعف في الأول ، ثم بتلهف أكثر •

ـ كفى حاليا ، ديانا • ليست عندها قـــوة : فسيؤذيها • حاولى اذا أمكنها الكلام الآن • اسأليها عن اسمها •

فاجبت :

ـ اسمي جين اليوت •

كنت أخشى أن يعرفوا اسمي الحقيقي •

ـ أين تسكنين ؟ أين أصدقاؤك •

كنت صامتة ••

ـ هل يمكنك أن تبعثي لأحد تعرفينه ؟

فهزرت برأسي •• ولا أدرى كيف بعـــد أن دخلت هذا المنزل وواجهت أصحابه ، لم أعد أشعـــر بالمتسكعة التي لا تنتمي لأى مكان ••• لم أعد أشعر بالمتسولة ، وبدأ سلوكي الطبيعي يعود الى ، وعندمـا طلب مستر سانت جون بيـانات عنى ، قلت بعـــد هنيهة :

ـ سيدى ، لا أستطيع أن اعطيك أية تفاصيل الليلة !

ـ اذن ماذا ، تتوقعين منى أن أفعله لك ؟

ـ لا شيء !

ان قوتى لا تســـمح الا بالاجابات المختصرة ، وتكلمت الآن ديانا :

ـ هل تقصدين أنك أخـــذت المســاعدة التى تحتاجينها ، واننا نصرفك الى حيث الليل والمطر ؟

تطلعت اليها . أعتقد أن لها وجها غير عادى معبر عن القوة والطيبة . وتحصنت بشجاعة فجائية .

واجبت نظرتها المتعاطفة بابتسامة ، وقلت :

ـ سائق فيك . لو كنت كلبـــة بلا مأوى وبلا صاحب ، اعرف انك لن تصرفينى فى مثل هذه الليلة . فليس لدى خوف . افعلى بى ما تشـــائين ، ولـــكن اعذرينى عن الكلام الكثير .. يؤلمنى استخدام صوتى .

ونظر الى ثلاثتهم فى صمت ، وقال مستر سانت جون أخيرا :

ـ حنا .. دعيها تجلس هنا ، حاليا ، ولا تسأليها مزيدا من الأسئلة . وبعد عشر دقائق أعطيهـا بقية الخبز مع الحليب . ماري وديانا ، فلنذهب الى غرفة الجلوس لنتشاور في الموضوع .

وذهبوا . وعادت احدى الفتاتين في الحال وأعطت بعض التعليمات لحنا .. وبعد قليل ساعدوني لصعود السلم الى فراش جاف دافيء . وشكرت الله ، واستغرقت في النوم ، وغصت في شعور دافيء من السعادة .. !

الفصل الثالث والثلاثون

عائلة ريفرز

وكانت ذكرى الأيام الثلاثة التالية لذلك باهتة جدا فى عقلى . علما بأنى كنت فى غرفة صغيرة وفى فراش ضيق ، ولاحظت دخول وخروج كل من دخل أو خرج .. وكنت أدرك ما يقال عندما يكون الشخص بجانبى ، ولكن كان من المستحيل على أن أفتح شفتى أو أحرك أى جزء من جسمى .

كانت حنا أكثر من تردد على .. شعرت أنها متحيزة ضدى . وظهرت ديانا ومارى مرة أو مرتين فى اليوم . تتهامسان بجانب فراشى وتعبران عن

فضولهما عمن أكون ، وفرحتهما بأنهما لم يفشلا فى منحى المأوى ٠٠ ولم أسمع فى محادثتهما أبدا كلمة أسف على عطفهما الذى أصبغاه على ، أو كلمة شك أو كراهية لى ٠

جاء مستر سانت جون مرة واحدة فقط ٠ تطلع الى وقال ان حالة ضعفى كانت نتيجة ارهاق شديـــد ومستمرة ٠ وقال انه لا داعى لطلب الطبيب ٠ وسمعت منه هذه الآراء يقولها فى كلمات قليلة بصوت هادىء منخفض :

ـ ستعمل الطبيعة أفضل اذا تركناها ولم نتدخل فيها ٠٠ فالفتاة ليست مريضة ٠٠

ووقف يلاحظنى لبضع دقائق ثم أضاف :

ـ يبدو أنها حساسة ، ولكنها ليست حســـنة المنظر !

وفى اليـــوم الثالث تحسنت ، وفى الرابـــع استطعت الكلام ، والحركة ، والجلوس فى السريـر

والالتفات · وبدأت أحس بالجوع · وعندما وجدت ، بعد الظهر ، على كرسى بجوارى جميع ملابسى نظيفة من الوحل الذى كان قد علق بها من أثر تسكعى وتجوالى حسب رأى حنا ، ونجحت بصعوبة فى ارتدائها · ومع شعورى بتمتعى بالاحترام مرة أخرى ، تسللت هابطة بعض السلالم الحجرية وسلكت طريقى الى المطبخ ·

كانت حنا تخبز · وعندما رأتنى قادمة مرتبـة وحسنة الهندام ، بدا عليها الرضا ، بل وابتسمت ، **وقالت** :

ـ حسن ، لقد نهضت ، انك أفضـــل اذن · يمكنك أن تجـــلسى على كرسى بجانب المدفأة ، اذا رغبت ·

وأخذت تتحرك فى انشغال وتتفحصنى من حين لآخر من زاوية عينها ·

والتفتت الى وهى تأخذ بعض الخبز من الفرن ، **وقالت** :

ـ هل كنت تتسولين قبل أن تأتى الى هنا ؟

تضايقت للحظة ، ولكنى تذكرت كيف ظهرت لها فى البداية ، فاجبت بهدوء لكن بحزم :

ـ انك مخطئة فى اعتقادك أنى متسولة • اننى مثلكم •

فقالت بعد فترة صمت :

ـ انى لا أفهم • ليس لك بيت ولا مال ، على ما أظن ؟

ـ عدم وجود البيت والمال لا يجعلنى متسولة بمعنى كلمتك •

فسألت فيما بعد :

ـ هل أنت متعلمة ؟

ـ أجل •

ففتحت عينيها تماما وقالت :

ـ اذن ، لماذا لا تعملين ؟

ـ كنت أعمل ، وآمل اننى سأعمل ثانيـــة ٠ والآن لا تقلقى على ما كنت عليه ، ولكن اخبرينى باسم العائلة التى تعملين لديها ٠٠

ـ اسمها عائلة ريفرز ٠

ـ هل السيد يعيش هنا ؟

ـ كلا ، انه باق لفترة قصيرة ٠ انه رجل دين ويعمل فى مورتون على بعد أميال قليلة ٠

ـ هل مات والدهم ؟

ـ أجل منذ ثلاثة أسابيع ٠

ـ أين أمهم ؟

ـ لقد ماتت منذ سنين عديدة ٠ وأنا أعمل هنا مدة ثلاثين سنة ٠٠ ورعيت ثلاثتهم ٠٠

ـ هذا يثبت أنك كنت شريفة ومخلصة ٠ انى امتدحك ، رغم انك نـــاديتنى بالمتسولـــة ورفضت مساعدتى عندما كنت فى محنة ٠

فرمقتنى بنظرة اندهاش وقالت :

ــ أعتقد أننى كنت مخطئة ، لا يجب أن تفكرى فى بسوء ·

فواصلت حديثى بطريقة أشد قائلة :

ــ لكنى أفكر بسوء فيك · لا لأنك منعتنى من المأوى ، ولكن لأنك وصمتنى بالفقـر ·· لا يجب أن تعتبرى الفقر جريمة !

فقالت :

ــ هذا حق · مستر سانت جون قال لى ذلك ، أيضا · أدرك أننى كنت مخطئة ·

ــ اننى أسامحك ، فلنتصافح ·

فقدمت لى يدها الخشنة وابتسمت · وأصبحنا من تلك اللحظة أصدقاء ·

كانت حنا محدثة عظيمة ، فأثناء قيامها بعملها ، قالت لى تاريخ عائلة ريفرز :

كان والدهم من عائلة طيبة ، فقد ثروة كبيرة لثقته فى رجل أساء له النصح · ولما كان لا يستطيع مساعدة ابنتيه ، عملتا كمـــربيتين · وهما الآن فى البيت لبضعة أسابيع بسبب وفاة والدهما · ومـــع جمع الشمل فى منزلهما كانت سعادتهما العظيمة ·

وبعد قليل عادت الفتاتان حيث كانتا فى جولـة بمورتون ، وكان معهما أخوهما · وعندما رآنى مستر سانت جون ، انحنى ثم مر من المطبخ ، أما الأختان فقد وقفتا وعبرت مارى بهدوء عن فرحها لرؤيتى أستطيع النزول · وأخذت ديانا يدى وهزت رأسها وقالت :

– كان يجب أن تنتظرى أن أسمح لك بالنزول· فأنت مازلت شاحبة · ولماذا أنت هنا ؟ نحن نجلس فى المطبخ أحيانا لاننا نحب أن نكون على حــريتنا ، ولكنك ضيفة ، ويجب أن تذهبى الى غرفة الجلوس ·

كانت لا تزال ممســكة بيـــدى ، فأنهضتنى وقادتنى الى الغرفـة الداخلـــية · وأغلقت الباب ،

وتركتنى بمفردى مع مستر سانت جون ، الذى كان يجلس أمامى يقرأ فتفحصته هو والغرفة معا ٠

كانت غرفة صغيرة نوعا ما مع أثاث كثير ، كله قديم لكن معتنى به ٠ أما مستر سانت جون الذى لا يتحرك كالحجر ، فكان صغيرا ، ربما كان فى الثامنة والعشرين أو الثلاثين وله ملامح نقية واضحة ٠٠ كانت عيناه زرقاوين ، وجبينه كان مرتفعـــا لا لون له ، وشعره أشقر ٠ لا يعطى احساسا بالرقة ولكن بالقوة الخفية ٠٠ لم يتكلم كلمة واحدة معى الى أن عـادت أختاه ومعهما الشاى ٠

فأكلت بشغف ، وأغلق مستر ريفرز كتابه ووجه بصره الى وقال :

ـ انك جائعة جدا ٠

فكانت اجابتى المرتبكة :

ـ لن آكل طويلا على حسابك يا سيدى ٠

فقال ببرود :

ـ كلا · عندما تخبـــرينا بعنـوان أصدقائك سنكتب لهم ويمكنك أن تعودى لهم ·

ـ يجب ان أقول لك بصراحة أن هذا مستحيل .

فنظر الى ثلاثتهم لا بريبة ولكن بفضـــول ·· وبدت عينا سانت جون غير قادرتين على التعبير عن أفكاره هو بل تبحث عن أفكار الآخرين ·

ـ هل تقصـــدين ان تقولى بأنك بدون عائلة تماما ؟

ـ ليس لى ما يـربطنى بأى انســـان حى فى انجلترا كلها

ونظر بسرعة الى يدى قبل ان يتكلم :

ـ انك غير متزوجة ؟

وعندما أجبت عـلى ذلـك ، احســست بوجهى يحترق · فرأوا جميعهم ارتبـاكى · أراحتنى ديـانا ومارى بادارة عيونهما الى اتجاه آخر ، ولكن أخاهما كان

أبرد واقسى فاستمر فى تثبيت عينيه على وسألنى :
ــ اين كنت تعيشين ٠

فتمتمت مارى فى صوت منخفض :
ــ انك فضولى جدا يا سانت جون ٠

فاجبت باقتضاب :
ــ هذا سرى ٠

فعلقت ديانا قائلة :
ــ الذى ، فى رأيى من حقك أن تحتفظى به اذا أردت ٠

فقال :
ــ اذا لم أعرف شيئا عنك وعن تاريخك ، فلا استطيع مساعدتك ٠ وأنت تحتاجين الى مساعدة ، أليس كذلك ؟

ــ انى احتاج مساعدة من شخص طيب فى ايجاد عمل لى يمكننى أن اقوم به ، ويساعدنى على المعيشة ٠

ــ أخبرينى اذن ، ما تستطيعين عمله ٠

فقلت ملتفتة له وانا اتطلع اليه بوضوح :

ــ مستر ريفرز · لقد قدمتم لى خدمة جليلة فلكم حق على ، لا أن أشكركم فقط ولكن ان أوليكم ثقتى أيضا · سأقول لكم عن نفسى قدر ما لا يزعج سلامتى وراحة بالى ·· اننى يتيمة ، تعلمت فى مدرسة لوود · وغادرتها منذ سنة لأصبح مربية واضطررت ان أترك وضعى لسبب لا أستطيع شرحه حاليا · ولم يكن على أى لوم · ومع تفكيرى فى الخلاص بسرعة وبتكتم مع حالتى العقلية المشوشة نسيت أن آخذ من العربة التى سافرت فيها أمتعتى القليلة التى استطعت احضارها معى ·· وهكذا وجدت نفسى عاجزة ومنهارة القوى ، الى أن أخذتنى وأكرمت وفادتى ·

فقالت ديانا عندما سكت برهة :

ــ لا تجعلها تتكلم أكثر من ذلك ، سانت جون ، انها ليست معدة للاثارة بعد · تعالى بجوار المدفأة واجلسى يامس اليوت ·

فجفلت مندهشة . لقد نسيت اسمى الجديد .
فلاحظ مستر ريفرز ذلك فورا وكأنه لا تغيب عنه غائبة . **وقال :**

ـ لقد قلت ان اسمك جين اليوت ؟

ـ لقد قلت ذلك ، وهذا هو الاسم الذى أعتقد من الحكمة أن أسمى به حاليا .

ـ الا تحبين أن تكونى ضيفتنا لمدة طويلة ؟

ـ كل ما أطلبه هو أن تساعدنى فى الحصول على عمل . واسمحوا لى أن أبقى هنا حتى ذلك الحين . وأخشى أن أعود بلا مأوى ثانية .

فقالت ديانا :

ـ بالتأكيد ، ستبقين هنا .

وكررت مارى أيضا :

ـ أجل ستبقين .

فقال مستر سان جون :

– ان أختى كما ترين يسعدهما بقاؤك ٠ وأنا أفضل أن أهيىء لك وضعا ليساعدك على المعيشة ، وسأحاول ذلك ٠٠ ولكنى أعمل فى منطقة فقيرة ، ولذلك ستكون مساعدتى من النوع المتواضع ٠

فكررت استعدادى لقبول أية وسيلة للعمل يقدمها لى ، وبعد ذلك صعدت الى الحجرة المخصصة لى مرة أخرى ، حيث كادت قوتى أن تنهار ثانية ٠٠

ديانا وماري وسانت جون

عندما زادت معرفتي بديانا وماري ، أحببتهما أكثر . واستردت صحتي بعد أيام قليلة .. حتى انى استطعت أن أبقى متيقظة طول اليوم ، وأخرج لأتمشى أحيانا . وأشارك الأختين في كل ما يعملانه . وبذلك استمتعت لأول مرة بالسعادة الناجمة عن الاتفاق التام في الذوق والأحاسيس والأفكار .

كانتا تحبان منزلهما والريف البري الذي حوله . وأنا أيضا تعلمت بسرعة لأحس بالانجذاب للمكان .

وكنا نتفق فى الانشطة البيتية · فأنا أحب أن أقرأ ما تحبانه ·

كانتا أكثر منى ثقافة وتعليما · ولكنى تابعت بشغف الطريق الدى سلكتاه فى المعرفة · وعرضت ديانا على أن تعلمنى اللغة الألمانية ، وأنا بدورى أعطيت دروسا فى الرسم لمارى ·

وهكذا مرت الأيام كالساعات ، ومرت الاسابيع كالأيام ··

أما بالنسبة لمستر سانت جون فالصداقة الحميمة التى نشأت بينى وبين أختيه لم تشمله ، لسبب واحد لأنه لم يكن يوجد بالبيت الا نادرا · كان يقضى معظم وقته فى زيارة المرضى والفقراء الذين فى منطقته · ولا يمنعه من هذه الواجبات شيء ·

ولكن بالاضافة الى غيابه المستمـــر كانت هناك عقبة أخرى تمنع الصداقة معه · فهو يبدو ذا طبيعــة منعزلة ، يحب أن يعيش حياة العزلة · وادركت أول علامة حقيقية عن شخصيته عندما سمعته يلقى موعظته

فى الكنيسة ٠٠ كان يتحدث بهدوء ينمو الى قوة لقد تحرك قلبى وتأثرت بحديثه واندهش عقلى لكلماته ٠ ولكنى لم أشعر بالاقتناع ، بل بالقوة ٠

وفى غضون ذلك ، مضى شهر ، وكان على ديانا رمارى أن تعودا قريبا الى حيث عملهما فى جنوب انجلترا ٠٠ ولم يقل سانت جون شيئا عن مستقبلى ، وأصبحت هذه المشكلة مستعجلة حاليا ٠

وفى صباح أحد الأيام تجرأت حين كنت بمفردى معه لدقائق قليلة ، واقتربت من الركن الخاص به فى غرفة الجلوس ٠ وترددت فى أن أبدأ بالكلام ، ولكنه وفر على المشكلة ورفع بصره نحوى وأنا أقترب وقال :

ـ لديك سؤال تريدين أن تسألينى فيه ؟

ـ أجل ، أود أن أعرف اذا كنت سمعت بأى وظيفة لى ٠

ـ لقد وجدت شيئا لك منذ ثلاثة أسابيع ، ولكن وجدتك سعيدة ونافعة هنا ، ومعاشرتك أسعدت

أختى • فقررت ألا أقطع هذه السعادة حتى يحين موعد رحيلهما ••

– ما هو العمل الذى وجدته لى ؟

– انه ليس مربحا ، ولكنى أعتقد انك ستقبلينه لفترة ، رغم أنى لا أظن أنه سيتلاءم مع طبيعتك بشكل دائم •

فقلت :

– وضح من فضلك •

– سأفعل • اننى لن أبقى طويـــلا فى مورتون خصوصا بعد وفاة والدى ، ولكن طالما أنا هناك سأبذل كل جهدى لتحسينها • لقد بدأت فى انشاء مدرســة بالفعل لاولاد الفقراء • وأنوى الآن أن أفتح مدرســة أخرى للبنات • لقد استأجرت مبنى ملحقا به كـوخ يصلح مأوى لمدرسة المدرسة • وسيكون مرتبها ثلاثين جنيها فى السنة • وستساعد سيدة ثرية فى المنطقـة بالنفقات • هل تقبلين أن تكونى مدرســـة هـــذه المدرسة ؟

ـ أشكرك يا مستر ريفرز ، وأقبل ذلك من كل قلبى ٠

ـ ولكنك تفهمينى : انهـا مدرســة قرية ٠ وتلميذاتك بنات فقيرات فقط ٠ بنات عمال ومزارعين٠ وكل ما ستقومين بتدريسه هو الخياطة ، والقراءة ، والكتابة ومبادىء الحساب٠ ماذا ستفعلين بانجازاتك؟

ـ يمكن أن تنتظر ٠

فابتسم ، وبدا عليه السرور ٠

أصبحت ديانا ومارى أكثر حزنا ، وأكثر صمتا لقرب رحيلهما وترك أخيهما وبيتهما ٠ ولاثبات حقيقة المثل القديم الذى يقول : «ان المصائب لا تأتى فرادى» جاء خبر ليزيد من خيبة أملهما ٠ اذ دخل سانت جون برسالة وقال :

ـ خالكما جون مات ٠٠ اقرآ هذه الرسالة ٠٠

فقرأت كلاهما فى صمت ، وابتسمتا فى حزن ٠

وعلقت ماري قائلة :

– على كل لن نكون أفقر مما كنا عليه .

والتفتت ديانا الى وقالت :

– جين ، ستندهشين منا ومن أسرارنا ، وتظنين أننا متحجرات القلب لعدم اظهار شعورنا على وفــاة خالنا ، ولكننا لم نره أو نعرفه مطلقا . كان أخـــا لوالدتنا . وتشاجر هو ووالدى لانه بسبب نصيحته خسر والدى كل ماله . وافترقا ولم يعودا أصدقاء بعد ذلك . ولقد أصبح غنيا ، ولكنه لم يتزوج . وكان والدى دائما يأمل فى أن يصلح ما أفسده ، وذلك بأن يترك لنا ممتلكاته عند وفاته . وهذه الرسالة تخبرنا بأنه ترك كل شيء لقريب آخر له . ومن حقه ، طبعا ، أن يفعل ما يسره ، لكننا لا نستطيع اخفاء شعورنا في هذه اللحظة بالخيبة . حتى ولو ترك لنا مبلغا ضئيلا من المال لكان ذلك أفضل لنا .

وبعد اعطاء هذا الشرح ، لم يذكر الموضوع مرة أخرى . وفى اليوم التالى غادرت البيت لأبدأ حيـاتى الجديدة ، بينما سافرت الأختان الى الجنوب ..

الفصل الخامس والثلاثون

مدرسة القــرية

قمت بأعمال مدرسة القرية بكل ما يمكننى مــن نشاط واخلاص ٠ كانت صعبة حقا فى البداية ٠ ومضى بعض الــوقت قبـــل أن أستطيـــع فهم تلميـــذاتى وطبيعتهن ٠ وكونهن جاهلات بالمرة ، أقصد لم يتلقين أى تعليم من قبل ، فكان يبدو عليهن ، فى أول الأمر ، الغباء بشكل يائس ولكنى بعد قليل وجدت انى كنت خاطئة ٠ فلدى كثيرات منهن ذكاء ممتاز ، وبدأن يجدن متعة فى اتقان عملهن ، بل كانت سرعة تقدمهن شيئا مدهشا ، وشعرت فى ذلك بفخر شريف وسعيد ٠ ومع

الوقت أحسست بأننى بدأت أصبح مشهورة ومحبوبة فى المنطقة ٠

ومع ذلك ، فبعد قضاء يوم فى هـــذا العمـــل الشريف بين تلميذاتى ، ومرور أمسية فى الرســـم والقراءة قانعة وبوحدتى راضية ، اعتدت أن أحلم أحلاما غريبة فى الليـــل ٠٠ من بينها مناظـــر غير عادية ومغامرات عاصفة ، والتقيت فيها بمستر روتشستر مرات ومرات ، ودائما فى لحظات مثيرة ٠ وعاد لى الأمل فى أن أقضى حياتى بجانبه بكل قوتـه الأولى وناره ٠ وكنت أستيقظ عندئذ ، وفى ظـلام الليل الساكت وأستسلم لليأس مرة أخرى ٠

وفى أحد الأيام ، وكان عطلـــة ، وكان منزلى مرتبا ، فجلست أرسم بعد الظهر ، عندما انفتح الباب، بعد طرقة واحـــدة سريعة ، ودخـــل مستر ريفرز ، وقال :

ـ لقد أتيت لأرى كيف تقضين أوقات فراغك ٠٠ وآمل ، الا يكون فى التفكير ؟ ٠٠ ولكن كلا ٠٠ هذا

جيد · فعندما ترسمين ، لن تشعرى بالوحدة · ولقد أحضرت لك كتابا · ·

وبينما كنت أتطلع بشغف فى صفحاته ، انحنى سانت جون ريفرز ليفحص رسمى · وعندما انتهى ، سحب من فوقها صفحة الورق الرقيقة التى اعتدت أن أسند يدى عليها أثناء الرسم لأمنع وقوع أى اتساخ على السطح · ماذا رأى على هذه الورقه الفارغة ، لم أدر ، لكنه كان شيئا جذب انتباهه · فأخذها والقانى بنظرة غريبة بشكل معبر ، ولكنها بعيدة عن فهمى · وانفرجت شفتاه وكأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه كتم الجملة التى لا أدرى ما هى ·

فسألت :

ــ ما الخبر ؟

فأجاب وهو يعيد الورقة مكانها :

ــ لا شىء على الاطلاق ·

ورأيته يقطع بعناية شريطا رفيعا من طرفها ،

ثم اختفت فى جيبه وايماءة سريعة و « تصحبى على خير » ٠٠٠ وخرج ٠

فحصت الورقة بدورى ، ولكنى لم أر شيئا ما عدا بعض بقع الألوان القـاتمة ٠٠ وحيرنى هذا الغموض لدقيقة أو اثنتين ، لكنى لم أجد تفسيرا ، وطردتها من عقلى فى الحال ٠٠

الفصل السادس والثلاثون

الوريثة

وعندما خرج سانت جون ، كان الثلج قد بد يهطل بشــدة واستمرت العاصفة طوال الليـل ، وجاءت ريح باردة كالصـقيع فى اليوم التالى جلبت هطول ثلج جديد ، فاصبح الخروج من الأبواب يكاد أن يكون مسـتحيلا . ولذلك كانت دهشتى عظيمة جدا عندما انفتح الباب بغتة وظهر سانت جون ريفرز وتكاد تكون قامته الطويلة مغطاة بالثلج .

فسألته :

- هل توجد أية أخبار سيئة ؟ هل حدث أى شىء ؟

فأجاب ، وهو يتخلص من معطفه وينثر الثلج من على حذائه :

ـ كلا ، انك تنزعجين بسهولة ! انني أفسد نظافة غرفتك · ولكن أعذريني ولو مرة !

ـ ولكن ، لماذا أتيت ؟

ـ ياله من سؤال محرج ليوجه لزائر · رغبت فقط أن أتحدث معك · فمن الأمس وأنا أخوض تجربة شخصية ·· انسان حكيت له قصة ، أو بالأحرى ، نصف قصة ، ونفد صبره لسماع نهايتها ·

وجلس ، وانتظرت ، ولكنه بدا مشغولا بأفكاره · فواصلت القراءة التى توقفت عنها لدخوله · وبعد قليل أخذ رسالة من جيبه ، ونظر اليها فى صمت ، وتكلم اخيرا :

ـ أتركى كتابك لحظة ، وتعالى لتقتربى قليلا من المدفأة !

فامتثلت وأنا مندهشة · واستمر قائلا :

ـ منذ برهة وجيزة ، تكـــلمت عن قصة انتهى نصفها · سأعيدها عليك · ومن العدل أن أحذرك بأن بعضها سيبدو مألوفا ·

منذ عشرين سنـــة أحب قس فقير ـ لا داعى لاسمه ـ ـة رجل ثرى · وبادلته الحب ، وتزوجته ضد نصيحة كل أصدقائها ·· وقبل مرور سنتين ، مات كلاهما · وتركا ابنة ، بلا صديق ، فربتها خالة كارهة لذلك اسمها مسز ريد ، من جيتسهيد · انك تتحركين ·· هل سمعت ضوضاء ؟

وذهبت اليتيمة عندما كانت فى العـــاشرة من عمرها الى مكان تعرفينه ·· مدرســـة لوود ، حيث تركت سجلا ممتازا كتلميذة وكمدرسـة · وأصبحت مربية فى منزل شخص يدعى مستر روتشستر ·

فقاطعته قائلة :

ـ مستر ريفرز !

ـ كدت أنتهى ·إنا لا أعرف شيئا عـن مستر

روتشستر ، فيما عدا أنه تظاهر بعرض زواج شريف على هذه الفتاة الصغيرة ، وأنها في آخر لحظة اكتشفت ان لديه زوجة لا تزال على قيد الحياة رغم أنها مجنونة . وبعد ذلك مباشرة ، حدث حادث جعـــل من الضرورى البحث عن المربية . فاكتشفوا عندئذ أنها ذهبت ، ولا أحد يستطيع أن يعرف متى ولا أين ولا كيف اختفت .. وكانت جميع الجهود للبحث عنها بلا طائل .. ومـع ذلك أصبح العثور عليها مسألة مستعجلة جدا .

فنشرت الاعلانات فى جميع الصحف . وأنا نفسى استلمت رســـالة من شخص يدعى مستر بريجـــز المحامى ، معطيا هذه التفاصيل .

فقلت :

ـ لكن قل لى . ماذا عن مستر روتشستر ؟ هل هو بخير ؟

ـ ليس لدى أية معلومات عن أى شىء يتعلـــق بمستر روتشستر ، فيما عدا محاولته تضليل القانون.

ـ لكن هؤلاء الناس كتبوا له ؟

ـ يذكر مستر بريجز أن الاجابة على طلبه من أجل الاستعلام قد وقع من قبل سيدة اسمها : أليس فيرفاكس • لا بد أن مستر روتشستر هذا كان رجـلا سيئا •

فقلت :

ـ انك لا تعرفه • فلا تبدى رأيك فيه •

وأخرج مستر ريفرز من جيبه قصاصة صغيــرة من الورق بها بعض الألوان الزيتية • فقرأت عليها بخط يدى اسمى « جين اير » ، لا أشك أننى كتبتها فى لحظة ما بدون وعى •• ثم **أردف قائلا :**

ـ كتب بريجـــز لى عن من تدعى جين ايــر ، والاعلانات تطلب شخصا بهذا الاسم • أنا أعرف •• جين اليوت ، وعندى شكوكى • وقالت لى قطعة الورق هذه الحقيقة بالأمس • هل تعترفين باسمك الحقيقى ؟

ـ أجل ، ولكن أين مستر بريجز ؟ ربما يعـرف أكثر منك عن مستر روتشستر ٠

ـ مستر بريجز موجود فى لندن ، ولكنى أشك فى أنه يهتم بمستر روتشستر ٠ لم تسألى لماذا يهتم بك أنت ٠٠ لماذا يبحث عنك ؟

ـ حسن ، ماذا كان يريد ؟

ـ ليقول لك فقط أن عمك ، مستر ايـر من ماديرا ، قد توفى ، وأنه قد ترك لك كل ممتلكاته ، وأنك الآن غنية ٠٠ ذلك فقط ٠٠ لا شىء أكثر ٠

ـ أنا ! غنية !؟

ـ أجل الوريثة الوحيدة ٠٠ !!

الفصل السابع والثلاثون

أبناء عمتى

انه شيء جميل هذا الارتفاع فى لحظة من الفقر الى الثراء .. ولكنه ليس موضـــوعا يمكن للانســان الاستمتاع به في الحال . بالاضافة الى أن عمى ، قريبى الوحيد ، الذى كنت آمل أن أراه يوما ما ، قد مات .

قال مستر ريفرز :

– فلترفعى رأسك أخيرا ، ربما ستسألين كـم تساوين ؟

– كم أساوى ؟



ـ أوه ، حاجة بسيطة ! حاجة لا تذكر ٠٠ عشرون الف جنيه !

ـ عشرون ألف جنيه !

فقال مستر سانت جون ضاحكا ، وهو الذى لم اره يضحك من قبل :

ـ حسن ، لو كنت متهمة بالقتل واخبرتك بأن جريمتك قـــد اكتشفت ، ما كنت انزعجت أكثر من ذلك ٠

ـ انه مبلغ كبير ٠ ألا تعتقد بأن هناك خطأ ؟

ـ لا يوجد خطأ على الاطلاق ٠

ونهض الآن مستر ريفرز ، وقال تصبحين عـــلى خير ، وكانت يده على الباب ، عندما طرأت لى فكرة مفاجئة ، فصرخت قائلة :

ـ انتظر دقيقة !

ـ حسن ؟

ـ ان ما يحيرني وأريد أن أعرفه ، لماذا كتب لك بريجز عني ، و كيف عرف أو استطاع أن يتخيل بأنك المقيم في مثل هذا المكان المنعزل ، لك القدرة للمساعدة في اكتشافي ٠

ـ أوه ، انني قس ٠ وعادة ما تسـأل الناس القس للمساعدة في شتى الأمور ٠

فقلت وقد تيقظ فضولي :

ـ كلا ، ان هذا لا يرضيني ! لا بد أن أعرف المزيد عن هذا الأمر ٠

ـ مرة أخرى سأقول لك ما ترغبين سماعه ٠

ـ كلا ! الليلة !

وقبل أن يلتفت من الباب ، وضعت نفسي بينهما، فبدا مترددا نوعا ما ، وقال :

ـ أفضل أن تخبرك ديانا أو ماري ٠

فما كان الا أن زاد شغفي ، فاصررت مرة أخرى على اشباع فضولي ٠

فقال :

ـ لكنى أحذرك فانا رجل قاس ، صعب تحريضه .

ـ وأنا فتاة قاسية .. من المستحيل اهمالها .

فقال :

ـ حسن ، انى أستسلم ، اذا لم يكن لشغفك ، فلاصرارك . بالاضافة الى أنك يجب أن تعرفى فى يوم ما .. هل اسمك جين اير ؟

ـ طبعا ، هذا فرغنا منه من قبل .

ـ انك لا تعرفين ، على ما أعتقد ، بأننى أدعى سانت جون اير ريفرز ؟

ـ كلا ، فى الحقيقة ، أذكر الآن أننى رأيت الحرف « ا » فى اسمك المكتوب فى الكتب التى قد أعرتها لى .. ولكن ماذا فى ذلك ؟ بالتأكيد ..

وتوقفت ، اذ تدفقت الحقيقة على ، عندما بدأت التفاصيل تربط نفسها فى عقلى ، **واستمر سانت جون يقول :**

ـ ان أمي تحمل اسم اير ، اذ كان لها أخان ٠ واحد قس وهـــو الذى تزوج من مسز جين ريد من جيتسهيد « والدتك » ، والآخر ، جون اير ، تاجـــر ماديرا ٠ ولقد كتب لنا مستر بريجز فى شهر أغسطس الماضى ، بصفته محامى مستر اير ، ليخبرنا عن وفاة خالنا ، ويقول أنه قد ترك ثروته لليتيمة أبنة اخيـه القس ، ولا يعطينا نحن شيئا ، نتيجة لمشاجرة ، لـم تنس أبدا ، بينه وبين أبى ٠ ثم كتب ثانيـة ، بعد عدة سابيع ، ليقول ان الوريثة فقدت ، ويسأل اذا كنا نعرف عنها أى شىء ٠ ومكنتنى قصاصة ورق صغيرة مكتوب عليهـــا الاسم من العثور عليهـــا ٠ وتعرفين الباقى ٠

فقلت :

ـ دعنى أتكلم لو سمحت ٠ أمك كانت اخت أبى ؟!

ـ أجـــل

ـ عمي جون كان خـالك جـــون ؟ اذن ، أنت وديانا وماري أولاد عمتي ؟!

ـ أجل ، نحن أولاد عمتك وأنت ابنة خالنا ٠٠!!

فنظرت اليه ٠٠٠ هذه ثروة في الحقيقة ، ثروة للقلب ٠٠٠ فقلت :

ـ أوه ، كم أنا سعيدة !

فابتسم سانت جون ، وقال :

ـ ألم أقل انك تهملين نقـاطا هامة في سبيل موضوعات بسيطة ؟ ٠٠ لقد كنت جادة عندما أخبرتك بأنك قـد حصـــلت على ثـــروة ، والآن تنفعلين لموضوع لا أهمية له ٠

ـ ماذا تقصد ؟ قد لا يكون له أهمية عنـــدك ، فلديك أختان ولا تهمك ابنة خالك ٠٠ ولكني ليس لي أحد ، والآن لدي ثلاثة أقارب ٠ أقول ثانية ، أنـــا سعيدة !

وأخذت أمشي ذهابا وايابا ، والأفكـــار تتدفق

بسرعة أكثر من امكانياتي للتعبير عنها . ووضع مستر ريفرز كرسيا خلفي وحاول برفق أن يجعلني أجلس عليه .

فقلت :

– أكتب لديانا وماري غدا ، وأبلغهما أن تأتيا للبيت حالا ... قالت ديانا ان مبلغا قليلا من المال كان سيصنع اختلافا لهما . اذا بخمسة آلاف جنيه لكـل واحدة منا .. ان ذلك سيجعلهما سعيدتين !

فقال سانت جون :

– دعيني أحضر لك كوبا من المـاء . يجب أن تحاولي بجد وتهدئي من روعك .

– مستر ريفرز ! انك تجعلني أفقد صبري . انني عاقلة بما فيه الكفاية .

– ربما ، اذا عبرت عن نفسك أكثر .

– أعبر ! ماذا يحتاج الى تعبير ؟ يجب أن تدرك أن عشرين ألف جنيه مقسمة بالتســـاوي بيننا نحن

الأربعة ، ستعطى كل واحد منا خمسة آلاف جنيه ٠٠ انى لست أنانية بشكل جشع ، أو ظالمة بشكل أعمى ، أو ناكرة للجميل بشكل حرون ٠٠ ابدا ، لا يمكن أن يكون هذا المـال كله لى ٠٠٠ انصافا ، رغم انه قـــد يكون ٠٠٠ قانونا !

ـ جين ، سنكون أولاد عمتك ، دون أن نتوقع هذه التضحية منك ٠

ـ أولاد عمة ٠٠٠ أنا ، غنية ، وأنتم فقراء !

ـ والمدرسة ، مس اير ؟ لابد أن تغلق حاليا ، على ما أظن ؟

ـ كلا ، سأحتفظ بوظيفتى كمدرسة حتى تجد من تحل محلى ٠

فابتسم موافقا ٠ وتركنى :

لقد واجهت مقاومات كثيرة ، كما استخدمت سبل اقناع عديدة قبل توزيع المال حسب رغبتى ٠ وكان عملا شاقا ، لكن لمـا كنت صادقة العزم على أن أطبق

قسمة عادلة للميراث ، ومصرة على أن يشعر أولاد عمتى من قلوبهم ، بأننى كنت أعمل فقط ما كانوا سيعملونه لو كانوا مكانى ‥ وأخيرا رضخوا ، على أن يسمحوا بالبت فى الموضوع من قبل المحامين ٠ وحاز رأيى بالتأييد ، فدونت الأوراق الضرورية ، وتم توقيعها ‥ واصبحت أنا وسانت جون وديانا وماري ملاكا لثروة معقولة ‥

الفصل الثامن والثلاثون

عودة ماری ودیانا

كنا قرب « الكريسماس » عندما تم تسوية كل شيء ، واقترب موعـــد الأجازة ، وأغلقت مدرســـة مورتون ٠

جاء مستر ريفرز ٠ ورأيت الفصول ، عددهن الآن ستون بنتا ، خرجن أمامى ٠ وأغلقت البـــاب ، ووقفت والمفتاح فى يدى ، أتبادل بعض الكلمات مع مجموعة من أفضل تلميذاتى ٠

فسألنى عندما ذهبن :

ـ هل ترين بأنك نلت مكافأتك مقابل فتـــرة

العمل ؟ أليست الحياة من أجل تحسين بنات جنسك استثمارا حسنا للوقت ؟!

فقلت :

ــ أجل ، ولكنني لا أستطيع الاستمرار هــكذا الى الأبد . أريد أن أتمتع بطاقاتي الذاتية ، مثلمـا أنمي هذه الطاقات لدى الناس الآخرين . يجب أن أتمتع بها الآن : اني مستعدة لأجازة ، فلا تذكرني بالمدرســة !

فبدا جادا وقال :

ــ ما هذا ؟ ماذا ستفعلين ؟

ــ أن أكــون نشيطة . اريدك أن تدع حنــا تساعدني . فديانا وماري ستكونان بالبيت في غضون أسبوع ، وأريد أن يكون كل شيء مرتبـا من أجــل وصولهما ..

ــ هكذا ؟ .. فكرتك ستذهبين في رحلة ما . الترتيبات في المنزل كلها أشياء حسنة جدا في الوقت

الراهن ، ولكنى أثق فى انك فيما بعد سترومين لهدف أعلى قليلا عن متع تدبير المنزل !

واشتغلنا أنا وحنا بجد ، وعندما أصبح المنزل نظيفا تماما ، اشتريت أثاثا جديدا وسجادا وقضيت وقتا طويلا فى ترتيبها ·

وجاء اليوم العظيم أخيرا · وارتديت أنا وحنا ملابسنا وكل شىء كان على أتم استعداد

ووصل سانت جون أولا ، فوجدنى فى المطبخ أراقب الكعك أثناء خبزه ، لتقديمه مع الشاى · وسالنى وهو يقترب من المدفأة اذا كنت قد اكتفيت بعمل الخادمة ، ثم ذهب الى غرفة الجلوس وبدأ يقرأ ·
وصرخت حنا وهى تفتح الباب على مصراعيه :

ـ انهما قادمتان ! انهما قادمتان !

فركضت للخارج ، ووقفت العربة عند البوابة · وفتح السائق الباب ، فنزلت الأولى ثم الثانية · وضحكتا وقبلتانى وقبلتا حنا وأسرعتا الى المنزل ·

وبينما أحضر السائق وحنا الأمتعة ، طلبتا

سانت جون ، الذى قدم فى هذه اللحظة من غرفة الجلوس · فعانقتاه فى أخوية مفرحة ، واعطى كل واحدة منهما قبلة سريعة ·· وقال فى صوت خفيض بضع كلمات للترحيب بهما ·· ثم عاد الى غرفة الجلوس !

كانت أمسية سعيدة · وكان لديهما كلام كثير ، غطى على صمت أخيهما · لقد كان سعيدا حقا لرؤياهما ولكنه لم يستطع الاشتراك فى مرحهما ·

ولابد أن طوال الأسبوع التالى كان امتحانا لصبره · كان أسبوع « الكريسماس » وكنا فرحين تماما ·· واعطت حرية البيت وهواء الريف وقدوم الثروة الطيبة حياة هانئة لديانا ومارى ، فكانتا فى سعادة من الصباح الى المساء · وابتعد سانت جون عنا · كان نادرا ما يبقى فى المنزل ، فدائما كان يجد أعمالا يومية فى زيارة المرضى والفقراء فى مورتون ·

وعندما بدأت سعادتنا تصبح أكثر هدوءا ، عدنا الى عاداتنا الاعتيادية ودراساتنا العادية · فاخذت مارى ترسم وديانا تقرأ وأنا أدرس اللغة الالمانية · وسانت

جون الذى يبقى أكثر الآن بالمنزل أخذ يدرس بعض اللغات الغريبة التى كانت ضرورية لخططه المستقبلية : وهكذا بدا مشغولا تماما ، ولكن عينيه الزرقاوين كانتا تتركان قواعد اللغات العجيبة التى يدرسها ، وتتجولان فيما حوله ثم تستقران أخيرا على أنا ٠٠ وتعجبت ، ماذا تعنى هذه النظرات ، وتعجبت أيضا ، بالرضـــا المستمر الذى يظهره عند زيارتى الأسبوعية لمدرسـة مورتون ٠ واذا كان الطقس رديئـــا كانت اختـــاه تحرضاننى على عدم الذهاب أما هو فقد كان يشجعنى دائما على المجىء لزيارة المدرسة ٠٠ وعندما كنت اعود متعبة أحيانا ومبتلة من المطر ، لم أكن اجرؤ أن أشكو مطلقا ، لأنى أرى أن ذلك قد يضايقه ٠

ومع ذلك ، ففى بعد ظهر أحد الأيام ، سمح لى أن أبقى بالمنزل بسبب البرد ٠ وذهبت أختـاه بدلا منى ٠ وجلست أنا أترجـــم ، وجلس هو يعمل فى قواعد اللغة التى يدرسها ٠ ووجدت نفسى تحت تأثير عينيه اللتين تستقران على دائما ، وقال لى :

ـ جين ، ماذا تفعلين ؟

- أتعلم اللغة الألمانية .

- أريدك أن تتركى الألمانيـــة وتدرسى اللغـة الهندوستانية .

- انك لست جادا ؟

- جادا تماما ، ساقول لك لماذا .

ومضى يشرح لى أن اللغة الهندوستانية هى اللغة التى يدرسـها حاليـا ، استعدادا للذهاب الى الهند فى بعثة تبشيرية ، وسيساعده بشكل عظيم أن يكون لديه تلميذة يراجع معها الدروس الأولى ويثبتها باتقان فى عقله . فهل أقدم لـه هـــذا المعروف ؟ الذى لن يستغرق مدة طويلة ، لانه يتوقع أن يغـادر انجلترا فى غضون ثلاثة أشهر .

لم يكن سانت جون رجلا يرفض بسهولـــه .. ويشعر الشخص أن كل شىء يجربه ألمـا أو متعـــة . له تأثير عميق ودائم عليه . فوافقت .

ووجدته أستاذا صبورا جدا ومع ذلك فقد كان صارما . وكان يتوقع منى أن أفعل الكثير . وبالتدريج

كسب تاثيرا خاصا على الشيء الذى سلب حرية عقلى ٠
فلم أعد أضحك أو أتكلم بحرية عندما يكون قريبا :
وكنت أشعر بأن المشاغل والأفكار الجادة فقط هى
التى يوافق عليها ٠ ولكنى لم أحب حالة اذعانى له ،
وودت مرات كثيرة أن يستمر فى اهمالى ٠٠ ٠

الفصل التاسع والثلاثون

جين ! جين ! جين !

وفى وسط تغيرات المكان هذه وهبوط الثـــروة المفاجئة لم أنس مستر روتشستر ولا للحظة واحدة . وتبعتنى الرغبة فى أن أعرف ما قد حدث له فى كل مكان .

وأثناء سير مراسلاتى مع مستر بريجز عن المال الذى تركه لى عمى ، استفسرت عما اذا كان يعرف أى شىء عن أعمال مستر روتشستر وحالته الصحية،ولكنه كان بلا معلومات تماما عن أى شىء يتعلق به . فكتبت

عندئذ الى مسـز فيرفاكس ، أرجـوها افادتى فى الموضوع . واندهشت عندما مر أسباعان بدون رد ، ولكن عندما مر شهران ، ويوما وراء يـوم لا يجلب البريد لى شيئا ، بدأت أشعر بقلق مفرط .

كتبت ثانية . لعل رسالتى الأولى قد فقدت . وعاد الأمل لبضعة أسابيع ثم خبا .. ولم يصلنى بسطر واحد ولا كلمة واحدة . وعندما انتظرت نصف سنة بلا جدوى ضاع أملى ثم شعرت بالأسى كله ..

وهل ربيع جميل ملأ الدنيا جمالا من حولى ، ولكنى لم أسـتطع التمتع به . واقترب الصيف . وحاولت ديانا أن تدخـل على نفسى البهجة ، وقالت بأننى أبدو مريضة ، ورغبت فى أن تأخذنى فى أجازة بجانب البحر . واعترض سانت جون على ذلك قائلا اننى لست فى حاجة الى تسلية بل الى وظيفة : فحياتى الراهنة بلا هدف .. واستمر فى اعطائى المزيد من الدروس فى اللغـة الهندوستانية ، وأنـا كالبلهاء ، لا أقدر على مقاومته .

وفي احدى الامسيات ، عدت الى دراساتي شاعرة بالحزن أكثر من العادة · فلقد اخبرتني حنا في الصباح بأن رجل البريد قد ترك لي شيئا ما ، وعندما نزلت لآخذها ، وأنا على يقين بأنها الأخبار المرغوبة أخيرا ، وجدتها رسالة عادية من مستر بريجز في بعض الأمور القانونية · فكانت خيبة أملي المريرة مجالا لاستنزاف دموعي دون ارادتي ، والآن وأنا جالسة أتصارع مع الكتابة الهندية ، اغرورقت عيناي بالدموع ثانية ·

وناداني سانت جون بجانبه لأقـــرأ · وعنـــد محاولتي هذه خانني صوتي · وكنا أنا وهو بمفردنا في غرفة الجلوس · لم يظهر رفيقي أي اندهاش ازاء فيض شـــعوري ، ولـــم يســـألني عن سبب ذلك ، **قال فقط :**

– سننتظر دقائق حتى تهدئين يا جين ·

مسحت دموعي وتمتمت بأنني لست على ما يرام وعدت الى درسي ، ونجحت في اتمامه · ونحى سانت جون كتبي جانبا وأغلق مكتبه **ثم قال :**

ـ جين ، اريد أن أتكلم معك ٠

وظل صامتا لبرهة ، ثم استمر قائلا :

ـ جين ، سأذهب في غضون ستة أسابيع ٠٠ لقد حجزت رحلتي على مركب تبحر في ٢٠ يونيـــو القادم ٠٠

شـعرت وكأن قـــدرا ما يتشكل من أجلي ٠٠ وارتعشت لسماع ما سيقوله بعد ذلك ٠٠ وقد كان ، اذ قال :

ـ جين ٠ تعالى معى الى الهند !

بدت الغـرفة تلف من حولي وتدور . فصرخت قائلة :

ـ أوه ، سانت جون ! كن رحيما !

فاستمر :

ـ ان الله والطبيعة يقصدانك أن تكوني زوجة مبشر ٠ لقد خلقت للعمل ، لا للحب ٠ يجب أن تكوني زوجة مبشر ، وستكونين ٠٠٠ زوجتي ٠٠٠ من أجـل خدمة الله ٠

فاجبت :

– اننى لا أصلح لذلك !

– لدى اجابة لك ... اسمعيها . لقد راقبتك منذ التقينا لأول مرة .. لقد رأيتك تمرين باختبارات عديدة للشخصية .. فى مدرسة القرية وجدتك قادرة على الأداء الجيد ، وبصبر وجلد .. العمل الذى كان ضد ذوقك ورغبتك .. والهدوء الذى استقبلت به خبر الثروة المفاجئة .. ورأيت ان المال ليس له تأثير قوى عليك . وفى استعدادك لتقسيم الثروة الى أربعة أجزاء ، والتخلى عن ثلاثة .. علمت أن لديك القوة فى التضحية بالذات .. فى الاذعان الذى أبديته لى ، عند رغبتى ، فى تركك الدراسة التى كنت تهتمين بهـــا وسلكت دراسة أخرى .. كل ذلك أراه ميزات عظيمة النفع لعملى . وكمساعدة فى المدارس الهنـــدية وبين النســـاء الهنديات ستكونين ذات قيمـــة كبيرة لى وللجميع ..

– لايجب أن أعيش طويلا فى مثل هذه البلاد !

فقال باستهزاء :

ـ آه ! انك تخافين من نفسك ٠

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أعرف أين قلبك : ان العاطفة التى تحتفظين بها حية غير قانونيـة وغير مقدسة ٠ انك تفكرين فى مستر روتشستر ٠

كانت هذه حقيقة ٠ اعترفت بها بسكوتى ٠

وأصبحت القضية واضحة جدا أمامى٠ فبمغادرتى انجلترا ، أغادر بلدا أحبها لكنها خاوية ٠ وأينما يكون مستر روتشستر ، فهو لا شىء بالنسبة لى ٠ يجب أن أجد اهتماما آخر فى الحياة بدلا من ذلك الذى فقدته ، وهـل هنـــاك مجـد أكبـر من ذلك الذى قدمه لى سانت جون ؟

فقلت اخيرا :

ـ **يمكننى أن أقرر ، اذا كنت على يقين ٠ لو كنت فقط متأكدة أن هذه هى ارادة الله ٠٠ !**

كنت أرغب باخلاص أن أفعل ما هو صـــواب ، فدعوت السماء ، وأنا منفعلة أكثر من أى وقت مضى :

ـ « اللهم اهدنى طريق الصواب ! اللهم اهدنى طريق الصواب ! » ٠

كان المنزل كله هادئا ، فالجميع قد صعـــدوا للطابق العلوى للنوم ماعداى أنا وســـانت جون ٠ وانتهت الشمعة المشتعلة الوحيدة ، وافترش ضـــوء القمر الغرفة ٠ فدق قلبى بسرعة وبثقل : وســـمعت حركته ٠ وفجاة وقف ساكنا وكان شعورا غامضا جرى عبره ٠٠ شعور لم يكن مثل الصدمة الكهربائية ولكنه كان حادا وغريبا مثلها ٠٠

فسالنى سانت جون :

ـ ماذا سمعت ؟ ماذا ترين ؟

لم ار شـــيئا ، ولكنى سمعت صوتا فى مكان ما يصرخ :

ـ جين ! جين ! جين !!

لم يكن يبدو في الغرفة ، ولا في المنزل ، ولا في

الحديقة · لم يخرج من الهواء ، ولا من تحت الأرض ولا من فوقى ·· سمعته ، وكان صوت بشر ·· كان صوتا معروفا ، محببا ·· صوتا أذكره جيدا ·· انه صوت ادوارد روتشستر ، وتكلم باستعجال ، ووحشية واضحة · فصرخت :

ـ انني قادمة ! انتظرنى ! أوه ، سوف آتى !

وطرت الى الباب وتطلعت فى الممر ·· كان مظلما ·· فركضت فى الحديقة ·· كانت خاوية ! ··

فسألت متعجبة :

ـ أين أنت ؟ ·· أين أنت ·· ؟!

وكررت التلال البعيدة صرختى ، لكن كل شىء كان خاويا ·

تبعنى ســـانت جون ، ولكننى طلبت منه أن يتركنى · فأطاعنى فى الحال ··

وصعدت الى غرفتى ، وأغلقت على نفسى ، وركعت على ركبتى فى دعاء ·· ونهضت عاقدة العزم ، أنتظر نور الصباح ··

الفصل الأربعون

الاطلال المحترقة

وجاء نور الصباح ، فاشغلت نفسى فى ترتيب حاجياتى ، وسمعت سان جون يغادر غرفتـــه ويفتح الباب ويخرج .

كان لايزال هنـاك ساعتان على موعد الافطار . فقضيت الوقت سائرة فى غرفتى ، ومفكرة فيما قد حدث الليلة الماضية . وتذكرت ذلك الشعور الداخلى الذى سبرت أغواره بكل غرابته التى لا توصف .. وتذكرت الصوت الذى سمعته .. فسالت ثانيـــة من أين جاء . لكن بلا فائدة .. ربما كان هذا الصـــوت يتردد فى داخلى .. وليس فى العــــالم الخارجى ..

فسألت نفسي هل كان مجرد خيال عصبي .. هل كان من وحي خيالي . لايمكن أن أصدق هذا ..

وعلى الافطار ، أخبرت ديانا وماري انني سأقوم برحلة ، وسأغيب أربعة أيام على الأقل . فسألتاني :

– وحدك يا جين ؟

– أجل ، لأرى أو أسمع أخبارا عن صديق كنت قلقة عليه مدة طويلة .

وبطريقتهما الحساسة الرقيقة لم يطرحا مزيدا من الأسئلة ، فيما عدا ديانا التي ســـألتني اذا كنت متأكدة بأن صحتي جيدة وفي حالة تسمح بالسفر .

تركت المنزل في الساعة الثالثة ، وعند الرابعة وقفت عند اشارة البريد منتظرة العربة التي تأخذني الى ثورنفيلد .. وفي ســـكون تلك التـلال المنعزلة سمعتها تقترب من بعيد . انها نفس العربة التي نزلت منها منذ عام ، في نفس المكان .. كم هو مكان منعزل وموحش !!

والآن .. هاأنذا أصبحت حرة مرة أخرى .. وشعرت وأنا متجهة الى ثورنفيلد ، بأنى مثل حمامة تعود الى بيتها ..

كانت الرحلة لمدة ست وثلاثين ساعة ، وعند نهايتها ، أصبحت الأرض بشجيراتها الخضراء وحقولها الممتدة وتلالها المنخفضة أكثر اعتدالا الا عن المنطقة التى قدمت منها ، فالتقت بها عينى مثلما تلتقى بملامح وجه مألوف ووقفت العربة عند فندق بالقرية فتكلمت مع الخادم الذى خرج من الفندق ، وسألته :

ـ كم تبعد ثورنفليد هول من هنا ؟

ـ ميلين فقط عبر الحقول ، سيدتى .

نزلت من العربة وتركت صندوقى فى الفندق . وسطع نور الصباح الباكر على اللافتة وقرأت الحروف الذهبية ، « درع روتشستر » . فدق قلبى طربا : كنت فى أراضى سيدى . ثم غاض قلبى ثانية.. اذ جاءتنى فكرة :

قد لا يكون سيدك هنا ، وحتى لو كان فليس

لك شـــان · يجب الا تستمرى · أطلبى من الناس بالفندق معرفة الأخبار ·

كان الاقتراح معقولا ، ومع ذلك لم أستطع أن أجعل نفسى تقبله · وخفت اجابة قد تسحقنى باليأس·· أريد أن أتطلع مرة أخرى الى ثورنفيلد هول ·· وكانت أمامى ، الحقول والممر · وقبل أن أعى ما أنا فاعلة ، كنت في طريقى ·· كم مشيت مسرعة ! ·· كم تطلعت أمامى لألتقط أول مشهد من الغابة المعروفة !؟

واخيرا ظهرت أمامى · فاسرعت الخطى ·· حقل آخر ·· طريق ضيق ·· ثم جدران الفناء والمبانى فى الخلف · كان المنزل نفسه لايزال مختفيا · **وقلت :**

ـ سارى واجهة المنزل أولا ، حيث يمكن أن أرى نافذة سيدى · ربما ســيكون واقفا عندها ·· فهو يستيقظ مبكرا · ربما يكون الآن فى الحديقة يتمشى· بالتأكيد ، فى هذه الحـالة ، لايجب أن أكون مجنونة وأركض اليه ؟!

مررت على جدران حديقة الفواكه ومشيت حول المنعطف · كانت توجد بوابة خلفيـة ، بين عمـودين حجريين · فأطللت برأسي حول واحد منهما بحذر · وتطلعت بسعادة مخيفة تجـاه المنزل النبيل · فرأيت أطلالا محترقة ، مع سكون الموت من حوله ·· !!

الفصل الحادى والأربعون

الضرير

كان لابد أن أحصل على اجـــابة للاسئلة التى تدفقت فى ذهنى ·· لن أستطيع العثور عليها الا فى الفندق ، فعدت اليه مسرعة ··

أحضر صاحب الفندق بنفسه الطعام الذى طلبته ·

وتمكنت من سؤاله اخيرا :

ـ تعرف ثورنفيلد هول ، طبعا ؟

ـ أجل ، ياسيدتى ، لقد كنت فى خدمة المرحوم روتشستر ·

فقلت في اندهاش :

– المرحوم ! هل مات ؟

– أقصد والد السيد الحالى ، مستر ادوارد .

فتنفست الصعداء ثانية ، وسألته :

– هل مستر روتشستر يعيش في الهول حاليا ؟

– أوه ، كلا ، ياسيدتى ! لقد احترقت ثورنفيلد هول فى الخريف الماضى .. حادث مروع ! لقد تحطمت كمية هائلة من المقتنيـات القيمة . شبت النيران فى منتصف الليل . وكان منظرا مخيفا .. لقد رأيتـــه بنفسى !

فى منتصف الليل ! كانت دائما ساعة الكوارث فى ثورنفيلد ، وسألته ثانية :

– هل تعرف كيف بدأ الحريق ؟

– انهم يخمنون ياسيدتى ، انهم يخمنون .

ثم اردف بصوت منخفض وهو يقترب منى :

– لعلك لاتعرفين ، لقد كانت هناك سيدة .. .. امرأة مجنونة فى المنزل .

ـ لقد سمعت شيئا من ذلك ٠

فاستمر قائلا :

ـ لقد تبين أن هذه السيدة هى زوجـــة مستر روتشستر ٠٠ وتم اكتشـــاف ذلك بأغرب الطرق ٠ كانت توجد فتـــاة ، مربية فى الهول ، وكان مستر روتشستر ٠٠

فقلت :

ـ ولكن الحريق ٠

ـ ساصل لذلك ياسيدتى ٠٠ مربية كان مستر روتشستر يحبها ٠ وقال الخدم بأنهم لم يروا أحدا يحب كل هذا الحب مثله ٠ وكانت شيئا صـــغيرا ، يقولون مثل الطفلة تقريبا ٠ حسن ، وأصر على أن يتزوجها ٠٠

فقلت :

ـ ستخبرنى بهذا الجزء من القصة فيما بعد ،

ولكنى اريد أن أسمع عن حـادث الحريق · هل هذه المرأة المجنونة هى السبب ؟

– بالتاكيد ياســيدتى ، انها أشعلتها · كانت لديها امرأة تعتنى بهــا ، تدعى مسز بوول ، يعتمد عليها ، الا فى عيب واحد ·· أنها أحيانا تشرب الخمر ، وتنام ·· وفى هذه الحالة تسرق مريضـتها مفاتيحها وتهرب ·· فى هذه الليلة أشعلت هذه المجنونة النار فى ستائر غرفتها ، ثم نزلت وأحرقت السرير الذى فى غرفة المربية ، ولكنه كان خاويا · لحسن الحظ · قد هربت المربية قبل ذلك بشهرين ، ورغم أن مستر روتشستر قد بحث عنها وكأنها أثمن شىء فى العالم ، فلم يسمع كلمة عنها أبدا ، وأصبح كسير القلب بسبب خيبة أمله · وأراد أن يكون وحيدا · فأرســـل مسز فيرفاكس مديرة منزله الى أصدقائها فى منطقة نائية · وألحق مس أديل ، وهى بنت صغيرة كانت فى عهدته ، بالمدرسة ·· ورفض أن يزور أحدا من جيرانه وأغلق على نفسه فى المنزل ·

– ماذا ! ألم يغادر انجلترا ؟

ـ يغادر انجلترا ! لم يتحرك من باب المنزل ، ماعدا في الليل ، عندما يتمشى كالشبح حول الحديقة وكأنه قد فقد صوابه ‥ وهذا كان رأيي ، لأنني لم أر أشجع ولا أنشط منه قبل أن تقلب هذه المربية كيانه ٠ لم يكن جميلا ولكنه كان شجاعا شهما ‥

ـ اذن ، كان مستر روتشستر بالبيت عند اشتعال الحريق ؟

ـ أجل ، لقد ذهب الى الغرف الخلفية ، عندما شب الحريق فى كل مكان ، وأخرج الخدم بأمان ، ثم عاد ليخرج زوجته المجنونة من غرفتها ٠ فنادوا عليه لأنها صعدت الى السطح حيث وقفت تلوح بذراعيها وتصيح ٠ كانت امرأة ضخمة لها شعر أسود طويل استطعنا أن نراه وهو يطير تجاه اللهيب وهى واقفة تضحك ٠ فرأيناه يتسلق الى السطح وسمعناه ينادى « بيرتا ! » ورأيناه يقترب منها ، ثم صرخت وقفزت ورقدت فى اللحظة التالية بلا حراك على الأرض ٠

ـ ميتة ؟

ـ ميتة ! أجل ميتة كالحجارة التى انتثر عليها دمها ومخها ٠ كان شيئا رهيبا !

ـ هل مات أحد آخر ؟

ـ كلا ٠ ولكن ٠

ـ ولكن ماذا ؟

ـ مستر ادوارد المسكين ! البعض يقول انه حكم عادل على تكتمه على زواجه الأول ورغبته فى الزواج بأخرى ، ولكنى أشفق عليه ٠

ـ قلت أنه مازال حيا ٠٠

ـ أجل ، ولكن كثيرين يعتقدون أن الموت كان أفضل له ٠

ـ لماذا ؟ كيف ؟

وسرى الدم باردا فى عروقى ٠

ـ انه ضرير !!

لقد خفت أن يكون الأمر أسوأ من ذلك ·· لقد خفت أن يكون قد فقد عقله · وجمعت قواى لأسأل سبب معاناته :

ـ كان السبب شجاعته وعطفه · لم يرد أن يغادر المنزل حتى يخرج كل واحد قبله · وأثناء نزوله السلم الكبير ، سقط السطح · ولقد انتشلوه من تحت الأطلال ، حيا ، ولكنه كان مصابا بشكل سيء ، فتعطلت احدى عينيه وسحقت احدى يديه فاضطر الطبيب أن يقطعها فى الحال · وفقد بصر العين الأخرى أيضا ··

ـ أين هو ؟ أين يعيش الآن ؟

ـ فى فرندين ، وهو منزل ريفى فى المزرعة التى يمتلكها على بعد ثلاثين ميلا تقريبا ·

ـ ومن معه ؟

ـ اثنان من الخدم الكبار فى السن · لقد رفض أن يكون لديه أكثر · يقولون انه محطم تماما ·

ـ هل لديك أى نوع من العربات ؟

ـ لدينا عربة جميلة جدا ياسيدتى ٠٠

ـ أرجو أن تجهزها حالا ، واذا استطاع السائق أن يوصلنى الى فرندين قبل الظلام اليوم ، سأدفع لك وله ضعف ما تطلب عادة ٠٠

الفصل الثانى والأربعون

سحر فى هذه الساعة

كان المنزل فى فرندين عبارة عن مبنى متوسط الحجـــم ، مختبىء فى عمق الغـــابة ، وكان مستر روتشستر يتكلم عنه دائمـــا وكان يذهب اليه فى بعض الأحيان ٠٠ كان والده قد اشتراه مع المزرعة من أجل الصيد ٠ وكان يرغب فى تأجيره ولكنه لم يجد من يرغب فيه بسبب موقعه غير المريح وغير الصحى ٠ لذلك ظل مهجورا غير مفروش ، فيما عدا حجرتين أو ثلاثا كان يستخدمها المالك كاستراحة عندما يذهب هنـــاك للصيد ٠

كان الوقت قبل الغسق والسماء كئيبة والريح باردة مع رذاذ مطر مستمر · صرفت العربة ومشيت الميل الأخير · وحتى أول المزرعة لم أر أى شيء من المنزل ، لأن الأشجار تنمو بكثافة ، والظلام من حولها ·

وأخيرا وقفت فى باحة أمام المنزل أراها بالكاد فى الضوء الخافت ·· لم تكن هناك أزهار ، ولا حديقة ، والكل ساكن ، فيما عدا سقوط المطر الرقيق ·

فسألت نفسى :

ـ هل توجد حياة هنا ؟

أجل ، توجد حياة بشكل ما · اذ سمعت حركة ، وانفتح الباب الأمامى الضيق · فتح ببطء ، وخرج منه رجـــل ظهر فى ضوء الشفق ، ووقف على احدى درجات السلم ·· رجل بلا قبعة ·· وبسط يده ليرى اذا كانت تمطر ·· وبرغم العتمة ، فقد عرفتـــه انه سيدى ، ادوارد روتشستر ، هو بنفسه ··

توقفت برهة ممسكة أنفاسى ، ووقفت أراقبه ··

أتفحصـــه ، وأنـا مختفية .. ولكن آه ! .. انه لن يراني !

كان قوامه هو نفسه ، قويا كما كان دائمـــا . ولا تزال مشيته معتدلة وشعره لايزال أسود ولم تتغير ملامحـه . ولكني رأيت تغيرا في وجهـه : كان يبدو يائسا ، مثل طائر أو حيوان مفترس قد أوذي وحبس في القفص ، وحظر الاقتراب منه .

وهبط الدرجـــة الوحيدة ، وتقدم ببطء نحو العشب . ثم توقف ، وكأنه لا يدرى أى طريق يتجه . فرفع يده وتطلع الى السماء وتجاه الأشجار . فرأيت ان كل شيء بالنسبة له كان ظلاما ..

واقترب منه في هذه اللحظة جون الخـــادم وقال :

ـ هل ستأخذ ذراعي ياسيدي ؟ .. سيسقط مطر غزير . أليس من الأفضل أن تعود الى الداخل ؟

فأجاب :

ـ دعني وحدي !

ودخل جون دون أن يلاحظنى • وبعد أن حاول مستر روتشستر بلا جدوى أن يتجول •• تحسس طريقه راجعا الى المنزل •

فاقتربت الآن ، وطرقت الباب ، وفتحت زوجة حون • فرجعت للخلف وكأنها رأت شبحا •

هدأت من روعها وتبعتها الى المطبخ ، شارحة فى كلمـــات قليلة أننى قد سمعت لتوى ما قد حدث منذ تركى لثورنفيلد • وفى هذه اللحظة رن الجرس فى غرفة الجلوس •

ملأت الخادم كوبا بالماء ووضعتها على صينية مع بعض الشموع • **فسألت :**

– هل لهذا دق الجرس ؟

– أجل ، أنه يســتخدم الشـــموع عند حلول الظلام ، رغم أنه أعمى •

– اعطنى الصينية سأحملها أنا له •

وأخذتها من يدها • فاهتزت من يدى وانسكب

بعض الماء من الكوب ودق قلبى عاليا وسريعا ٠ وفتحت زوجة جون الباب وأغلقته خلفى ٠

لم تكن غرفة الجلوس تبـدو مبهجة ٠ وكانت هنـــاك نار مهملة صغيرة تشتعل فى المدفأة ، وينحنى فوقها الأعمى صاحب الغرفة ٠٠ ويرقد فى أحد الجوانب بيلوت كلبه العجوز ٠ ولكنـــه قفز وركض الى يكاد يقلب الصينية من يدى ٠ فوضعتها على المائـدة وقلت للكلب بلطف :

ـ انزل على الأرض !

فالتفت مستر روتشستر ليرى سبب الازعاج ، ولكنه أعاد رأسه ثانية متذكرا ضعفه وقال :

ـ اعطنى الماء !

فاقتربت وتبعنى بايلوت وهو لايزال منفعلا ٠

فقلت ثانية :

ـ انزل يا بايلوت !

فتوقف والماء في منتصف الطريق الى شـفتيه

واخذ يتسمع • ثم شرب ووضـــع الكوب جانبا •
وسال :

ـ من هذه ؟ من هذه ؟ أجيبى •• تكلمى ثانية !

فاجبت :

ـ بايلوت يعرفنى ، وجون وزوجته يعرفانى ،
لقد جئت لتوى !

فرد يده بحركة سريعة • ليرى أين أقف ، فلم
يلمسنى • فوضعت يدى فى يده • فقال :

ـ أصابعها ! جين ؟

وأمسك بذراعى وكتفى وخاصرتى •

ـ هذا شكلها •• هذا حجمها ••

فاضفت قائلة :

ـ وهذا صوتها • انها كلها هنا : قلبها أيضا •
بارك الله لك ياسيدى ! أنا سعيدة لأكون بالقرب منك
ثانية !

ـ انك حقيقية ؟ انك جين البشرية فى مجموعها ؟ انك متأكدة من ذلك ؟

ـ أعتقد هذا باخلاص يامستر روتشستر ٠

ـ ولكن كيف يمكنك أن تظهـــرى فى هذه الأمسية المظلمة فى غرفتى المنعزلة فجأة ؟ مددت يدى لآخذ كوب الماء من الخادمة ، فتعطيه أنت لى ، سألت سؤالا ، وسمعت صوتك بأذنى ٠

ـ لأننى أتيت بالصينية بدلا من زوجة جون ٠

ـ يوجد سحر فى هذه الساعة ٠ من يمكن أن يصف الحياة المظلمة اليائسة التى أمضيتها فى الشهور الماضية ؟ لا أفعل شيئا ، لا أتوقع شيئا ، وأعانى فقط أسى لا نهائيا ٠٠ وأحيانا كانت تعتصرنى رغبة مجنونة لرؤية عزيزتى جين مرة أخرى ٠ كيف يمكن أن تكون جين معى ؟ ألن تذهب فجأة كما جاءت ؟

كنت متأكدة من أن الاجابة العملية أفضل له فى

هذه الحالة الذهنية ، فسألته متى يتنــاول عشاءه فقال :

— أنا لا أتناول العشاء مطلقا .

— ولكنك ستتناول بعضـــا منه الليلة . فأنا جائعة ، وأتوقع أنك كذلك .. ولكنك تنسى فقط .

ناديت زوجة جون ، وفي الحال أعد الطعام على المائدة ، وأزدت نــار المدفأة فأصــبحت أكثر بهجـة . وكنت منفعلة وتحدثت اليه أثنــاء العشاء وبعده لمدة طويلة في متعة وراحة ، بلا احســـاس بالارتباك .. وكنت سعيدة معه لأني أعرف أني أناسبه ، فجلب ذلك نــورا لكل طبيعتي . ورغــم أنه كان أعمى ، الا أن الابتسامات بدأت تضيء وجهه ، وتزيل عنـــه ملامح المرارة .

— مع من كنت طوال هذه المدة ياجين ؟

— لن تعرف هذا مني الليلة ، ياسيدي . يجب أن تنتظر الى الغد . والآن سأتركك . لقد كنت على

سفر خـــلال الأيـام الثلاثة الماضية ، وأعتقد أننى متعبة . تصبح على خير .

ـ كلمة واحدة ياجين . هل كان بالمنزل الذى كنت فيه سيدات فقط ؟ فضحكت ، وخرجت ..

وهنا وجدت الوسيلة التى أحركه بها ، وأنزعه بها بعيدا عن حزنه .. !

الفصل الثالث والأربعون

من أحبه أكثر

وسمعته فى صباح اليـــوم التالى ينزل الطابق السـفلى مبكرا جدا • وعندما نزل الخدم ، ســمعت السؤال : هل مس اير هنا ؟ ، ثم أى غرفة حلت بها ؟ هل استيقظت ؟ اذهبى واســـأليها اذا كانت تريد شيئا ، ومتى ستنزل •

ودخلت غرفة الافطار بهدوء جدا ، ورأيته قبل أن يكتشف حضورى • كان قد جلس على كرســيه ، وخطوط الحزن تعلم على ملامحه القوية • وقلت :

ـ انه يوم مشرق ياسيدى • لقد ولت الأمطار • يجب أن تتمشى فى الخارج •

لقد حركت فيه الحياة ، فابتسم •

وقضينا معظم الصباح فى الخارج • وبعد مدة طلب منى أن أخبره بتجاربى خلال العام المنصرم •• وبدأت قصتى ، ولكننى خففت وصف الأيـام الثلاثة التى تسكعت فيها ••

وقال لى بأنه كان لايجب أن أتركه هكذا بدون أى شىء يساعدنى على الحيـــاة •• وكان متأكدا من أننى قاسيت أكثر مما اعترفت به له •

فاجبت :

ـ حسنا ، مهما كانت معاناتى فهى لم تكن طويلة •

ثم أخبرته بأسرة ريفرز وبترحابهم بى وبكل ما تبع ذلك •

ـ اذن ، سانت جون هو ابن عمتك ؟

– أجـل

– انك تتكلمين عنه كثيرا . هل تحبينه ؟

– انه رجل ممتاز . فلا يمكن الا أن أحبه .

– رجل ممتاز . هل هو رجل فى الخمسين مثلا .

– سانت جون فى التاســـعة والعشرين فقط ياسيدى .

– هل هو شخص غبى . قصير ، قبيح ؟

– انه رجل وسيم ، طويل ، أشـقر ، له عيون زرقاء .

– لكن عقله ؟ ربما خفيف نوعا ما ؟

– انه قليل الكلام ، ياسيدى ، ولكن ما يقوله يستحق الانصات دائما . انه رجل ذكى حقا .

– هل تحبينه يا جين ؟

– أجـل يا مستر روتشستر احبــه . لكنك سالتنى ذلك من قبل .

بدأت الغيرة تتعلق به ، ولكن لسعتهـا كانت تعيده للحياة ٠

ـ هل كان يزورك دائما فى مدرستك ؟

ـ يوميـا ٠

ـ كان لك بيت بجوار المدرسة ، كما قلت ، هل جاء اليك هناك ليراك ؟

ـ أحيـانا ٠

فترة سكوت ٠

ـ هل كان يقضى وقتا طويلا مع الأسرة عندما كنت تعيشين معهم ؟

ـ أجل ، لقد درسنا فى نفس الغرفة ٠

ـ ماذا درستما ؟

ـ درست اللغة الألمانية فى البداية ٠

ـ هل علمك ؟

ـ انه لا يفهم الألمانية ٠ لقد علمنى قليلا من الهندوستانية ٠

– ريفرز درس لك اللغة الهندوستانية ؟
– أجل ، يا سيدى .
– وأختاه أيضا ؟
– كلا ، أنا فقط .
– هل طلبت التعلم ؟
– كلا ، رغب هو أن يعلمنى ..
– لماذا ؟ وما فائدة اللغة الهندوستانية لك ؟
– كان ينوى أن أذهب معه الى الهند .
– أراد أن يتزوجك ؟
– لقد طلب منى أن أتزوجه .
– هذه دعوة لازعاجى !
– عفوا ياسيدى. لقد طلب بالفعل وكان شغوفا نى حتى على ذلك .
– مس اير ، يمكنك أن تتركينى . اذهبى وتزوجى مستر ريفرز هذا .
– انه لن يكون زوجى مطلقا . انه لايحبنى كما تظن .. انه يريدنى فقط لأنه علمنى ، ويعتقد باننى

ساكون زوجة مناسبة لمبشر دينى ٠٠ انه طيب وعظيم ولكنه بارد جدا بالنســـبة لى ٠ هل يجب أن أتركك ياسيدى لأذهب اليه ؟!

ـ جين ، هل هذه هى الأوضاع على حقيقتها ؟

ـ بلا ريب ياسيدى ٠

ـ هل ترغبين أن تكونا أصدقاء ؟

ـ أجل يا سيدى ٠

ـ آه ، جين ، ولكنى أريد زوجة ٠

ـ حقا ياسيدى ؟

ـ أجـــل ٠

ـ اختر اذن يا سيدى ٠٠ من تحبك أكثر ٠٠

ـ ساختار على الأقل ٠٠ التى أحبها أنا أكثر ٠ جين هل تتزوجيننى ؟

ـ أجل ياسيدى ٠

ـ رجل أعمى فقير ، ستقودين طريقه بيدك ؟

ـ بكل صدق ياسيدى ٠

ثم قال بعد قليل :

– جين . شيء غريب حدث لى منذ أيام قليلة . أعتقد أنه كان ليلة الاثنين الماضى . لقد سيطر على اعتقاد بأنك مت ، حيث لم أستطع العثور عليك . وفى تلك الليلة بدأت أصل لأموت أنا أيضا . اذ شعرت بأن عقابى قد طال بما فيه الكفاية : فطلبت من الله أن ينهيه . وتفجرت رغباتى من شفتى فى كلمات هى .. « جين ! جين ! جين ! » ..

ستعتقدين أننى تخيلت أشياء ، ولكن ما أقوله لك الآن ، حقيقى .. عندما أنادى ، سمعت صوتا هاتفا .. مجيبا .. لا أدرى من أين : « انى قادمة انتظرنى » . وبعد لحظة سمعت الكلمات .. « أين أنت ؟ » همسا مع الريح . أعتقد أننا التقينا بالروح..

الفصل الرابع والأربعون

النهـــاية

تزوجت مستر روتشستر فى هدوء ، بعد ذلك بايام قليلة • وكتبت فى الحال الى أولاد عمتى أخبرهم بما تم • فوافقت ديانا وماری على عملى بدون تردد • اما كيف استقبل ســـانت جون الخبر ، لا أدرى • لم يجب على الرسالة التى أرسلتها بهذا الخصوص ••

وبعد ستة شهور كتب لى بهدوء وبعطف ، ولكن بدون أن يذكر اسم مستر روتشستر • وظل يكتب بانتظام ، ولكن ليس بكثرة ، من الهند ، حيث أصبح يكرس حياته لعمله •

وفى الحال ذهبت لأرى أديل الصغيرة بالمدرسة . وملأتنى فرحتها الشـــديدة لرؤيتى بالعطف . كانت تبدو شاحبة ونحيفة . ووجدت قوانين المدرسة شديدة على طفلة فى سنها ، فأخذتها معى للبيت الى أن أستطيع أن أجد لها مكانا تربويا أفضل . وعندما تركت المدرسة وجدتها رفيقة سارة ، لطيفة .

ظـل مستر روتشستر ضريرا لمـدة ســـنتين بعد زواجنا . ثم ، فى صباح أحد الأيام ، وأنا أكتب رسالة يمليها على ، قال لى :

– جين ، هل ترتدين حلية لامعة حول رقبتك ؟

كنت أرتدى سلسلة ذهبية فاجبت :

– أجل !

– وهل ترتدين ثوبا أزرق فاتحا ؟!

وكنت . فابلغنى بانه من فترة وهو يتخيل ان سحب الظلام تنحسر عن احدى عينيه ، والآن أصبح متأكدا .

وذهبنا ســويا الى لندن • وزار طبيب عيـون مشهور ، ومع الوقت استرد بصر عين واحدة • لـم يكن يرى بوضوح تام ، ولكن عندما حمل ابنه لأول مرة على ذراعيه ، استطاع أن يرى أن الولد له نفس عينيه كما كانتـا عليه من قبـل ، واسعتين ســاطعتين وسوداوين ••

ديانا وماري ريفرز تزوجتا وتحضران لزيارتنـا كل سنة • وزوج ديانا كان ضابطـا في البحرية ، وزوج ماري كان رجل دين زميلا لأخيها في الدراسة •

وسانت جون ظل غير متزوج • انه لن يتزوج الآن •• ودلت الرسالة الأخيرة التي وصلتني منه بكل وضوح أن عمله في هذه الدنيا قد انتهى تقريبا • وهو لا يخشى الموت ، وستأتيه النهاية كما كان يرغب •

فهرس

اقرا فى هذه السلسلة : ●

١ ـ اوليفر تويست :
تاليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٢ ـ الآمال الكبرى :
تاليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٣ ـ ثورة على السفينة بونتى :
تاليف : وليم بلاى ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٤ ـ مغامرات شيرلوك هولمز :
تاليف : سير آرثر كونان دويل ٠
ترجمة محمد العزب موسى ٠

٥ ـ المغامرات المرحة لروبن هود :
تاليف هوارد بايل ٠
ترجمة : نادية فريد ٠

جيني ايس - ٣٨٥

٦ - الغـــاز :
تاليف : ادجار الان بو .
ترجمة : نادية فريد .

٧ - عائلة من سويسرا :
تاليف : يوهان فايس .
ترجمة : سناء صليحه .

٨ - مغامرات توم سوير :
تاليف : مارك توين .
ترجمة : مختار السويفى .

٩ - مغامرات مكلبرى فين :
ترجمة : مختار السويفى .
تاليف : مارك توين .

١٠ - رحلة كون تيكى :
تاليف : ثور هايردال .
ترجمة : محمد العزب موسى .

١١ - حكايات من شكسبير (١) :
تاليف : وليم شكسبير .
ترجمة : الشريف خاطر .

١٢ ـ المزيـــف :

تاليف : روبرت أونيل ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٣ ـ المخطوف :

تاليف : روبرت لويس ستيفنسون ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٤ ـ الفرسان الثلاثة :

تأليف : الكسندر دوماس ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٥ ـ الأرض الطيبة :

تاليف : بيرل بك ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٦ ـ حول العالم فى ثمانين يوما :

تاليف : جول فسيرن ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٧ ـ رحلة الى مركز الأرض :

تاليف : جول فيرن ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

١٨ ـ **سجين زندا :**
تاليف : أنتوني هور ٠
ترجمة : محمد العزب موسى

١٩ ـ **انا كارنينا :**
تاليف : ليو تولستوى
ترجمة : محمد العزب موسى

٢٠ ـ **جين اير :**
تاليف : شارلوت برونتى ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٢١ ـ **مرتفعات وذرنج :**
تاليف : اميلى برونتى ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٢٢ ـ **رجال عظام ونساء عظيمات :**
تاليف : ليزلى ليفيت ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٢٣ ـ **دافيد كوبر فيلد :**
تاليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٢٤ ـ حكاية مدينتين :
تأليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : حسين البنهاوى ٠

٢٥ ـ أوقات عصيبة :
تأليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : د٠ على كامل شحاته ٠

٢٦ ـ مذكرات بيكويك :
تأليف : تشارلس ديكنز ٠
ترجمة : د٠ أنور شتا ٠

٢٧ ـ توم جونس :
تأليف : هنرى فيلدنج ٠
ترجمة : نادية فريد ٠

٢٨ ـ الزنبقة السوداء :
تأليف : الكسندر دوماس ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٢٩ ـ بعيدا عن الناس :
تأليف : توماس هاردى ٠
ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال ٠

٣٠ ـ العقل والعاطفة :
تأليف : جين أوستن ٠
ترجمة : صبرى الفضل

٣١ ـ الكبرياء والهوى :
تأليف : جين أوستن
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٣٢ ـ حكايات من شكسبير (٢) :
تأليف : وليم شكسبير ٠
ترجمة : الشريف خاطر ٠

٣٣ ـ ذات الرداء الأبيض :
تأليف : ويلكى كوليز ٠
ترجمة : نادية فريد ٠

٣٤ ـ جزيرة الكنز :
تأليف : روبرت لويس ستيفنسون ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٣٥ ـ كنوز الملك سليمان :
تأليف : سير رايدر هاجارد ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٣٦ ـ دكتور جيكل ومستر هايد :
تأليف : روبرت لويس ستيفنسون ٠
ترجمة : مختار السويفى ٠

٣٧ ـ قلعة الخطر :
تأليف : مارى ستيورات ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٣٨ ـ أبناء الغابة الجديدة :
تأليف : كابتن ر ن ٠ ماريات ٠
ترجمة : نادية فريد ٠

٣٩ ـ ثلاثة رجال فى قارب :
تأليف : جيروم ك ٠ جيروم ٠
ترجمة : د٠ على كامل شحاته ٠

٤٠ ـ اللؤلؤة :
تأليف : جون شتاينبك ٠
ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال ٠

٤١ ـ آخر أيام بومبى :
تأليف : لورد ليتون ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٤٢ ـ **شجرة الجكاراندا :**
تاليف : هـ ٠ أ ٠ بيتس ٠
ترجمة : محمد عبد الحميد الجمال ٠

٤٣ ـ **كيبس :**
تاليف : هـ ٠ ج ٠ ويلز
ترجمة : عبد الغنى داود

٤٤ ـ **من الأرض الى القمر :**
تاليف : جول فيرن ٠
ترجمة : صبرى الفضل

٤٥ ـ **اول رجال على سطح القمر :**
تاليف : هـ ٠ ج ٠ ويلز ٠
ترجمة : صبرى الفضل ٠

٤٦ ـ **ارواح شريرة :**
تاليف : هنرى جيمس ٠
ترجمة : الشريف خاطر ٠

٤٧ ـ **خليج القرصان الفرنسى :**
تاليف : دافنى دى مورييه ٠
ترجمة : سعد توفيق ٠

٤٨ ـ قصص قصيرة من الأدب العالمى (١) :
تاليف : نخبة من الأدباء العالميين •
ترجمة : مى التلمسانى •

٤٩ ـ ايفانهو :
تاليف : سير والترسكوت •
ترجمة : صبرى الفضل •

٥٠ ـ قصص قصيرة من الأدب العالمى (٢) :
تاليف : نخبة من الأدباء العالميين •
ترجمة : محمد العزب موسى •

٥١ ـ قصص قصيرة من الأدب العالمى (٣) :
تاليف : نخبة من الأدباء العالميين •
ترجمة : محمد محمد العزب موسى •

٥٢ ـ مون فليت :
تاليف ج • ميدفوكنر •
ترجمة : مختار السويفى

٥٣ ـ ابكى يا بلادى الحبيبة :
تاليف : آلان باتون •
ترجمة : محمد العزب موسى •

٥٤ - مزرعة الحيوان :

تأليف : جورج اورويل ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

٥٥ - هى او عائشة :

تأليف : سير رايدر هاجارد ·

ترجمة : صلاح عز الدين ·

٥٦ - شيرلوك هولمز (٧ قصص) :

تأليف : سير آرثر كونان دويل ·

ترجمة : نادية فريد ·

٥٧ - الكونت دى مونت كريستو :

تأليف : الكسندر دوماس ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

٥٨ - سيلاس مارنر :

تأليف : جورج اليوت ·

ترجمة : صبرى الفضل ·

٥٩ - آلة الزمن :

تأليف : هـ · ج · ويلز ·

ترجمة : محمد العزب موسى ·

٦٠ ـ **البحيرة الزرقاء :**
تاليف : هـ ٠ دى فرت كيول ٠
ترجمة : مى التلمسانى ٠

٦١ ـ **موجول :**
تاليف : جون اليوت ٠
ترجمة : مى التلمسانى ٠

٦٢ ـ **الرجل الخفى :**
تاليف : هـ ٠ ج ٠ ويلز ٠
ترجمة : الشريف خاطر ٠

٦٣ ـ **عالم رائع جديد :**
تاليف : الدوس هكسلى ٠
ترجمة : الشريف خاطر ٠

٦٤ ـ **روبرت اوف هنتزو :**
تاليف : انتونى هوب ٠
ترجمة : د٠ على كامل شحاته ٠

٦٥ ـ **مون ستون :**
تاليف : ويلكى كولينز ٠
ترجمة : نادية فريد ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/١١١٤٨

I.S.B.N 977-01-3611-5